www.smart10.com

قراءة في كتاب

حياتي

كلينتون يخط حياته بقلمه

عرض د . محمد مخلوف

www.smart10.com

تم التنسيق

في

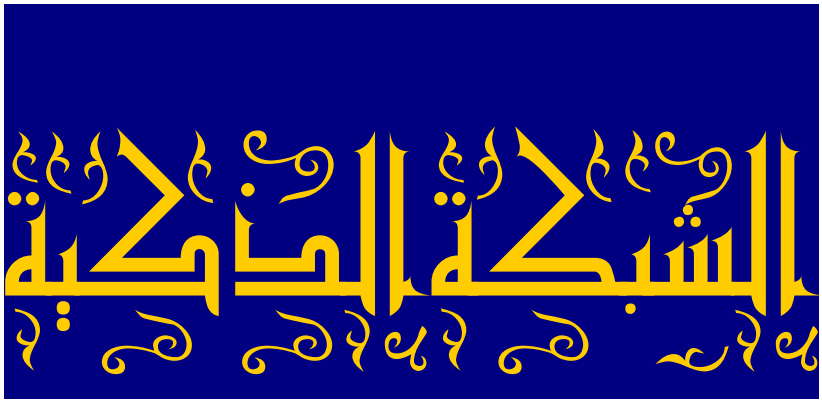

www.smart10.com

مصدر المحتوى

جريدة الإتجاه الآخر

هذا هو الكتاب الذي ينتظره الكثيرون، والذي أثار ضجة كبيرة حتى قبل صدوره، وبعد أن كانت وسائل الإعلام قد تحدثت عنه طويلاً، بل إن (خبر(صدوره استقطب اهتمام العديد من القنوات التلفزيونية في مختلف أرجاء العالم. فلماذا؟ السبب واضح ومفهوم، ففي هذا الكتاب يقدم الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون (شهادته) على عصر كان عنصراً فاعلاً فيه وموجها لأحداثه، ويقدم أيضاً (حقيقته) وقصة صعوده من إحدى المدن الصغيرة وصولاً إلى البيت الأبيض.
قصة رئيس مع منصبه، ومع زوجته هيلاري، وابنته تشيلسي، ومع الحياة اليومية في البيت الأبيض، ومع مشكلاته ومشكلات العالم.

انه كتاب ـ وثيقة استثنائية عن حياة رجل استثنائي.

يقول بيل كلينتون في إهداء هذا الكتاب:

(إلى أمي التي أعطتني حب الحياة، إلى هيلاري التي منحتني حياة مليئة بالحب، إلى تشيلسي لما أعطته من فرح ومعنى لهذا كله. وإلى ذكرى جدّي الذي علّمني كيف أنظر بعين التقدير إلى أولئك الذين لا يقدرهم الآخرون، هذا لأننا في النهاية لا نختلف كثيراً عن بعضنا البعض).

لماذا تحمس كلينتون للسياسة وهو في الرابعة عشرة؟

في الصفحات الاولى من الكتاب يحكي بيل كلينتون عن واقع أسرته، عن أمه وعن أبيه وقصة حبهما وزواجهما وموت والده بحادث سير قبل ولادة ابنه وليام جيفرسون يوم ١٩ آب ١٩٤٦. لم يعرف وليام أباه أبداً، ولكنه كان يسأل أمه باستمرار عنه، ويطلب منها أن تحكي له عنه، وذات يوم عندما كان عمر وليام (بيل) إثنتا عشرة سنة وكان يجلس امام منزل عمه مرَّ به رجل، ونظر اليه طويلاً، ثم قال له: (أنت ابن بيل بليت ـ اسم الأب ـ انك تشبهه وكأنك نسخة منه).
كان ذلك القول مصدر سعادة كبيرة للابن خلال ايام عديدة، وذكرى اخرى تعود الى ذاكرة بيل كلينتون وتخص اباه ايضاً، كان ذلك عام ١٩٧٤ وكان آنذاك مرشحاً للانتخابات التشريعية، وكانت تلك هي حملته الانتخابية الاولى وذات صباح باكر كانت والدته تتناول القهوة في احدى المقاهي عندما تقدم منها رجل تذكرت انها كانت قد رأته كما روت لابنها، وقال لها: (لقد كنت هناك وكنت اول من وصل الى مكان الحادث في تلك الليلة). ثم اخبرها ما رأى من محاولات الاب، الصراع ضد الموت ومدى تعلقه بالحياة.

قفزة على سلم الذكريات

يقفز بيل كلينتون في ذكرياته، الى عام ١٩٩٣ والى يوم عيد الآباء الذي كان يمضيه للمرة الاولى وهو في البيت الابيض، ويومها نشرت (الواشنطن بوست) تحقيقا مطولا عن ابيه ثم قامت الاسوشيتدبرس بنشر تحقيقات لاحقة عنه خلال شهرين فضلاً عن عدد من المقالات الصغيرة هنا وهناك ولقد عرف بيل وامه الكثير عن الأب، لا سيما وانه كان قد تزوج ثلاث مرات قبل لقائه بوالدة بيل وان له على الاقل ولدين آخرين، اسم احدهما هو ليون ريتزنتالر، الذي يعيش في شمال كاليفورنيا.

ويقول انه كان قد بعث لاخيه بيل رسالة عندما كان في غمار الحملة الانتخابية الرئاسية عام ١٩٩٢ لكنه لم يتلق اية اجابة، ما يؤكده بيل كلينتون اليوم هو انه لا يتذكر اي شيء عن هذه الرسالة، ويرى انه من الممكن ان فريقه الانتخابي قد قرر انه من الافضل ان لا يطلعه عليها، او ربما انها ضاعت في جبل الرسائل التي كانوا يتلقونها آنذاك، لكن عندما عرف بيل كلنتون بأمر الرسالة من خلال التحقيقات الصحافية التقى باخيه.

وبزوجته جودي، وكان اللقاء جميلاً فقد استمر الاخوان بتبادل الرسائل في مناسبات الاعياد، وبعد ان يشير بيل كلينتون الى ان شهادة ولادة ليون تثبت انهما ينحدران من اب واحد، وان الشبه بينهما كبير، يبدي اسفه لعدم التعرف إلى اخيه في وقت مبكر اكثر.

في المدة نفسها ايضاً عرف بيل كلينتون ان لـه اختـا اسمها (شارون بيتيجون) تعيش في مدينـة تكساس وانها قد كتبت لـه رسائل عندما كان حاكما وارفقت الرسالة بـ (وثيقة زواج) امها وابيها مع صورة للاب، ورسالة من الام لزوجها تتحدث بها عن (وليدنا) ولا يتردد بيل كلينتون في اعلان اسفه لانه لم يلتق بها ابداً.

لقد سببت هذا الاخبار ولا سيما الخبر الاخير الذي وصل عام ١٩٩٣، الكثير من الألم لوالدة بيل كلينتون التي كانت تعاني منذ مدة من مرض السرطان، لكنها ظلت متماسكة مؤكدة ان والده كان (حب حياتها) وانها لم تشك لحظة بحبه لها، اما بالنسبة لبيل نفسه فانه نظراً لما كانت عليه حياته لم يتفاجأ بان يكتشف بانه كان لـه اب اكثر تعقيداً بكثير من الصورة المثالية التي عاشت معه قرابة نصف قرن من الزمن عن ابيه.

وتزداد الصورة تعقيداً عندما نشرت الصحف عام ١٩٩٤ عدة مقالات حول الماضي العسكري لوالده فقد كان الاحتفال يتم تلك السنة بالذكرى الخمسين لعملية الانزال الكبير الذي قام به الاميركيون والبريطانيون والكنديون على شاطىء النورماندي الفرنسي في حزيران من عام ١٩٤٤ لتحرير فرنسا من الاحتلال النازي في اثناء السنوات الاولى من الحرب العالمية الثانية. آنذاك تلقى بيل كلينتون رسالة من شخص ايطالي الاصل كان قد هاجر الى اميركا بعد الحرب العالمية الثانية كي يحقق (حلمه الاميركي) مدفوعاً بما كان قد الهمه له ذلك العسكري الاميركي الذي كان موجوداً بإحدى القواعد العسكرية بايطاليا ولم يكن يعرف عنه سوى انه اسمه (بيل) والذي غادر بلاده من دون ان يلقي عليه تحية الوداع، وفي عام ١٩٩٤.

ويوم ذكرى الانزال العسكري الكبير في النورماندي كان الاميركي الايطالي (امبيرتو بارون) يتصفح جريدة (ديلي نيوز) عندما كان يتناول قهوة الصباح عندما احس بأن (صعقة قد ضربته) ذلك انه في اسفل احدى الصفحات وعلى اليسار، كانت هناك صورة العسكري (بيل) (عندها ادركت وانا في قمة الانفعال، انه رأي بيل ـ لم يكن سوى والد رئيس الولايات المتحدة الاميركية).

وفي ١٩٩٦ وفي اثناء اللقاء العائلي لتناول عشاء ليلة عيد الميلاد، قدم احد ابناء اخت والد بيل كلينتون هدية لـه، كانت هي رسالة العزاء التي بعث بها نائب المنطقة لها بوفاة اخيها، والده، لم تكن تلك الرسالة تحتوي سوى على بضعة اسطر لكنها كانت شديدة الاهمية بالنسبة للرئيس الاميركي يقول: (لقد ضممت تلك الرسالة الى صدري بفرحة طفل في السادسة من العمر جلب له بابا نويل اول قطار كهربائي كهدية لقد علقتها في مكتبي الخاص في الطابق الثاني من البيت الابيض، وكنت آتي لرؤيتها كل مساء).

وفي قطار الذكريات نفسه يعود بيل كلينتون الى عام ١٩٩٢ عندما ذهب برفقة زوجته هيلاري الى مدينة شيكاغو ـ المدينة التي شهدت ولادتها ـ للحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي له للرئاسة الاميركية، وهي ايضا المدينة التي كان اهله قد أتوا للاقامة بها بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد ان القى بيل كلينتون خطابه توجه الى فندق (بالميرهاوس) إذ كان ابوه وامه قد اخذا معاً الصورة الوحيدة التي يمتلكها لهما وذلك قبل ان تعود الام الى بلدة هوب في اركنسو عام ١٩٤٦ .

وفي احدى الغرف الصغيرة التقى بسيدة تدعى ماري ديثاريس وابنتيها لقد كانت قد ترعرعت مع امه وكانت صديقتها في المدرسة الثانوية قبل ان تنتقل للاقامة في انديانا للعمل في ميدان صناعة السلاح. وهناك تزوجت وانجبت وربت طفلتيها في اثناء ذلك اللقاء قدمت تلك السيدة لبيل كلينتون هدية ثمينة اخرى، تمثلت في رسالة كانت والدته قد بعثت لها بها بعد ثلاثة اسابيع فقط من وفاة زوجها قبل اربعة وخمسين عاماً.

لقد تعرف بيل على خط امه الجميل واحس بمدى الحزن الذي كان يعتريها بسبب المصاب الذي حل بها، لكنه احس ايضاً بمدى تصميمها للتقدم نحو الامام، فقرأ في رسالة الأم لصديقتها: (لقد بدا لي ذلك ـ وفاة الاب بحادث سير امراً مستحيلاً تماماً. لكن كما ترين انني حامل بشهري السادس، وعندما افكر بطفلنا احس بانني قوية للذهاب نحو الامام وينتابني الشعور بأن العالم كله يفتح لي ذراعيه).
وفي محصلة ما تركته امه له، وما تركه ابوه، يقول بيل كلينتون: (لقد تركت لي والدتي الخاتم الذي كانت قد قدمته لوالدي عند زواجها، وتركت لي ايضاً بعض الحكايات المؤثرة والقناعة الثابتة بانها كانت تحبني من اجله).

وعن والده يقول: (اما والدي فقد ترك لي الاحساس بانه ينبغي عليّ ان اعيش من اجل اثنين، وجعلتني ذكراه افهم منذ وقت مبكر جداً انني انا ايضاً انسان مصيره الفناء، وهذه القناعة بانني قد اموت انا ايضاً بسن الشباب دفعتني دائماً الى ان آخذ اقصى ما استطيع من كل لحظة في حياتي وان اكون مستعداً لمواجهة اي تحد جديد: وحتى لو لم اكن اعرف اين اذهب حقيقة كنت (أمضي نحو المواجهة بدون تردد).

صدر العمر

أمضى بيل كلينتون السنوات الاربع الاولى من طفولته في بلدة هوب باركنسو وانتقلت امه الى (نوفيل أورليان) كي تحصل على شهادة التأهيل ممرضة وكان يتردد عليها برفقة جدته ويؤكد انه يحتفظ بذكريات جميلة عن تلك المدينة التي حضر فيها اول حفل لموسيقى (الجاز) وكان قد بدأ بالعزف على آلة (الساكسفون) خلال دراسته الثانوية فيما بعد، وعندما اصبح عمره ٢١ سنة حصل على منحة دراسية في المدينة التي احبها يقول: (لقد شاهدت منذئذ اغلبية المدن الكبرى في الكرة الارضية لكن نوفيل اوريان احتفظت دائما بمكانة خاصة).

لقد استمع بيل كلينتون في اثناء سنوات طفولته وشبابه الاولى للكثير من الحكايات التي رواها جده وجدته واعمامه، والذين كان يكن لهم جميعاً الكثير من الحب والاحترام، ومن هذه الحكايات كلها خرج بنتائج يصفها بانها (ثمينة) وقد عبر عن ذلك بالقول: (ليس هناك انسان كامل، لكن اكثرية البشر ليسوا سيئين، وينبغي على الآخرين عدم الحكم عليهم وهم في اسوأ لحظات حياتهم او عندما يكونون في اوج حالات ضعفهم).

واذا كان بيل كلينتون يتحدث كثيراً عن العديد من افراد اسرته الكبار، فانه يكرس اهتماماً خاصا لوالدته التي عادت الى بلدة هوب بعد ان اتمت تدريبها ممرضة في نوفيل اورليان، لقد كانت آنذاك ارملة جميلة اتخذت (صديقاً) لها صاحب مرآب ـ كراج ـ سيارات (بويك) في بلدة هوب المدعو روجر كلينتون، والذي يصفه بيل بانه كان (رجلاً وسيما سبق له وطلق مرتين).

ويؤكد بان والدته كانت تحبه جداً اذ كان ودوداً وكريماً ويولي اهتماماً كبيراً ببيل اذ انه لم يتردد في ان يدفع للأم ثمن تذكرة القطار للمجيء من نوفيل اورليان لرؤية ابنها، وربما كان يسدد نفقات سفر الجدة والابن للذهاب الى نوفيل آورليان.

تزوج روجر كلينتون ووالدة بيل في حزيران ١٩٥٠. كان عمرها آنذاك سبعة وعشرين عاماً، وعاش بيل مع امه وزوجها إذ لم يتأخر الطفل عن مناداته بـ(بابا) لينادي الجميع ببيل كلينتون وكان روجر يقف الى جانبه عندما يواجه صعوبة، ويناصره امام والدته عندما يقوم بحماقة، وقد اصطحبه معه مرة الى مدينة سان لويس لمشاهدة مباراة بيسبول. ان بيل يؤكد ان روجر كلينتون كان يحبه ويحب والدته، ولكن نقطة ضعفه الكبيرة كانت تعاطيه الكحول مما كان يجعله عنيفاً.

ومما كان يمنعه ان يكون الرجل الذي كان يمكنه ان يكونه، ووصل به الامر في احدى المشاجرات الى اطلاق رصاصة استقرت بالجدار بين الام والابن بيل، الامر الذي اضطرها لاستدعاء رجال الشرطة، الذين اقتادوا الاب مكتوف اليدين ليمضي ليلته في السجن، لكنه خرج منه وهو يشعر بالخجل لما فعل، ولم يقم باي عمل سيء خلال مدّة من الزمن.
وخلال عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ اكتشف بيل كلينتون عالم السينما، وخلال تلك الفترة ايضاً سمع بالحرب الكورية، لكنه كان يفضل افلام الغرب ولا سيما فيلم (القطار يصفر ثلاث مرات) الذي قرأه ست مرات عندما عرضته سينما بلدة هوب ويذكر بيل كلينتون انه عندما تم انتخابه رئيساً للولايات المتحدة اسر بذلك لأحد الصحافيين وعندما قرأ فريد دينمان مخرج الفيلم الذي كان يعيش آنذاك في لندن وعمره يقارب التسعين عاماً ارسل للرئيس كلينتون رسالة جميلة.

وارفقها بنسخة من السيناريو كانت تحمل تعليقاته وصورة كتب عليها اهداء له وتجمعه مع جاري كوبر وغريس كيلي، بطلي الفيلم وتعود لعام ١٩٥١، ويؤكد كلينتون انه بعد اكتشافه للفيلم اصبح عندما يواجه اي امتحان صعب يحلم بنظرة جاري كوبر الذي كان يعرف كيف يتخطى خوفه، عندما يواجه خسارة شبه مؤكدة و(هذا امر يمكن ان يحدث في الحياة الحقيقية ايضاً) حسبما يضيف بيل كلينتون.

عاش بيل كلينتون مدة من سنوات طفولته في الريف مع والدته وزوجها روجر كلينتون ولكن سرعان ما عادوا جميعاً الى المدينة بعد عام واحد في الحياة باحدى المزارع. لقد عادوا الى مدينة هاي سبرينج إذ توجد صالات المقامرة وتوجد ايضاً عدة ينابيع طبيعية للماء الساخن والتي كانت تجتذب الكثير من السياح، وكانت منطقة تسكنها اعداد كبيرة من السود، وفيها كنيستان ومعبدان يهوديان، إذ كان اليهود يمتلكون افضل المخازن في المدينة وكان بعضهم يديرون صالات البيع.

وفي تلك المدينة ايضاً نسج بيل كلينتون صداقات استمرت حتى الآن ومن بينها صداقته مع (بول دافيد ليوبولوس) ذي الاصل اليوناني والذي يقول عنه (لقد اصبح افضل اصدقائي في المدرسة الابتدائية، ومنذئذ بقي كأخ بالنسبة لي) والى تلك الفترة تعود ايضاً صداقات بيل كلينتون مع اميركيين من اصل عربي ومن بينهم (جيدو حسين) الذي كان مع اخواته ثمرة قصة حب ولدت في اثناء الحرب العالمية الثانية بين اميركي من اصل سوري وامرأة ايطالية.

وفي ١٩٥٦ اصبح لبيل كلينتون اخ حمل اسم روجر كاسيدي كلينتون كذلك امتلكت الاسرة جهاز تلفزيون لكن الامر الغريب هو ان ولادة ذلك الطفل لم تدفع اباه روجر كلينتون نحو الهدوء والاستقرار وانما بالاحرى اندفع من جديد نحو زجاجات

الكحول. كان بيل في العاشرة من عمره وأصبح يقضي اوقاتاً طويلة امام التلفزيون، فقد كان يشاهد افلام الاطفال والمسلسلات المكرسة لهم، ولكن كان اكثر ما يستوقفه.

ويشد انتباهه بحسب اعترافه نقل اجتماعات الجمهوريين والديمقراطيين، يقول (كنت اتسمر امام التلفزيون واشاهد المرشحين يمكن لمثل هذا ان يبدو غير قابل للتصديق لكنني كنت احس بنفسي على احسن ما يرام في عالم السياسة والسياسيين، كنت احب الرئيس ايزنهاور وسعدت جدا انه رشح نفسه من جديد، لكن بما اننا كنا ديمقراطيين استثمرت جهودي في صفهم).
وكانت السينما هي الهواية الاخرى الى جانب التلفزيون، وكان شديد الاعجاب بـ (الفيس بريسلي) كما كان يحفظ عن ظهر قلب اغانيه جميعها، وكان فيلمه (احبني برفق) هو، ولا يزال، الفيلم المفضل لديه، وبقي اعجاب (بيل كلينتون) كبيراً بالفيس بريسلي الى حد ان بعض اعضاء فريقه الانتخابي عام ١٩٩٢ اطلقوا عليه تسمية (الفيس).

في ١٩٥٧ توفي جد بيل كلينتون وكان حزنه عليه كبيراً اذ يقول عنه: (كان يحبنا كثيراً امي وانا .. بل واكثر من حياته نفسها، ان حبه علمني (...) جعلني افضل مما كان يمكن ان اكون عليه بدونه) وفي عام ١٩٥٧ قام بيل كلينتون ايضاً بزيارة مدينة (دالاس) التي كانت المدينة الثالثة التي عرفها، لقد زار ايضاً في سنته الاخيرة بالمدرسة الابتدائية وفي اطار رحلة طلابية، مقر الحاكم الذي كان غائبا فجلس التلامذة مكانه، الامر الذي يقول عنه بيل كلينتون:
(لقد اثر بي ذلك الى درجة انني بعد سنوات قمت غالباً بالتقاط صور من يجلسون على كرسي في مقر اقامة الحاكم وفيما بعد في المكتب البيضاوي بالبيت الابيض).

ويعود كلينتون ايضاً الى عام ١٩٥٧ الذي شهد صيغة قضية (ليتل روك سنترال) وهي الثانوية الرئيسية في المدينة، ففي شهر سبتمبر كان يفترض دخول تسعة طلاب سود الى تلك الثانوية، وكان يدعمهم ديزي بيتس رئيس تحرير (اركانساس ستيت برس) اي الجريدة السوداء في ليتل روك وقد اصبح اولئك السود التسعة رمزاً للشجاعة من اجل البحث عن المساواة، ولم يتردد بيل كلينتون عندما اصبح حاكما من دعوة التسعة للاحتفال بالذكرى الثلاثين للقضية، وفي عام ١٩٩٧ قام كلينتون وكان قد وصل إلى البيت الأبيض، بتنظيم احتفال كبير في ساحة المدرسة بمناسبة مرور اربعين عاماً عليها.

في العام الدراسي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ دخل بيل كلينتون الى المدرسة الاعدادية فقد عرف تحديات جديدة وتجارب جديدة وهذا ما عبر عنه بالقول: (لقد بدأت اعرف بشكل أفضل عقلي وجسدي وروحي والعالم الذي تطور بداخله) وفي تلك الفترة ازداد اهتمامه بالموسيقى ولم يكن امله يتجاوز المشاركة في العرض بين شوطين لمباراة في كرة القدم أو في فترة عيد الميلاد او ربما المشاركة في الحفلات الموسيقية والمهرجانات الاقليمية للولاية، وقد فاز بعدة ميداليات، ولكنه كان يفشل في الاداء كلما حاول ان يعزف مقطوعات موسيقية اعلى من قدراته.

وكانت المادة الرئيسية التي اثارت اهتمامه في المدرسة الاعدادية هي مادة الرياضيات لكن الدرس الاهم: أخذه من فيرنون دوكاي استاذ العلوم الذي لم يكن وسيماً أبداً بنظارتيه السميكتين. ولكنه كان بشوشاً باستمرار وعميقاً في فهمه للطبيعة الانسانية. وذات يوم حدق بطلابه وقال لهم:
(ربما انكم لن تتذكروا بعد سنوات أيها الاطفال، شيئاً من دروس العلوم. لذلك سوف اعلمكم شيئاً عليكم ان تتذكروه حول الطبيعة الانسانية. فكل صباح عندما استيقظ من النوم أذهب الى الحمام وابلل وجهي واحلق ذقني ثم انظف آثار معجون الحلاقة ثم انظر الى نفسي في المرآة واقول لنفسي: فيرنون، انت جميل تذكروا هذا أيها الاطفال، ان جميع البشر يريدون ان يحسوا بأنهم جميلون).

وما يؤكده بيل كلينتون انه تذكر ذلك بعد أكثر من اربعين سنة ويضيف: (ان اشياء كثيرة كانت قد فاتتني ـ ربما ـ لو لم يكن فيرنون دوكاي قد قال لي بأنه كان جميلاً، ولم لم أكن قد أدركت انه كان جميلاً بالفعل).

وفي تلك الفترة أيضاً بدأ بيل كلينتون يهتم فعلاً بالسياسة فقد توضحت أكثر ميوله حيال الديمقراطيين الذين كانوا يضمون لصفوفهم فئات عديدة من طبقات المجتمع لأسباب متنوعة فقد كانت اعداد كبيرة من العمال العاطلين عن العمل ومن الفلاحين البؤساء قد وجدوا في روزفلت منقذاً لهم.

وكانت اغلبية السود تؤيد الديمقراطيين بسبب روزفلت أيضاً وبسبب مواقف ترومان مع منح الحقوق المدنية لهم ولاعتقادهم بان كيندي سوف يكون أكثر نشاطاً من نيكسون في هذا الميدان. وكان هناك مجموعة من البيض تفكر بالطريقة نفسها، وكان كلينتون من بينهم. ولم يتردد في دعم المرشح كيندي لا سيما بعد أن سمح لزوجة مارتن لوثر كينج، الزعيم الاسود، بالتعبير عن رأيها في حين ان زوجها كان في السجن.

حديث الأسرار

يفصح بيل كلينتون عن بعض اسرار تلك الفترة، ولا سيما سر ذلك الحدث الذي جرى عندما كان عمره اربعة عشر عاما وكان عمر أخيه الصغير اربع سنوات. وذات مساء اغلق روجر كلينتون (الغرفة التي كان بها مع امه واخذ يصرخ بوجهها قبل أن ينهال عليها ضرباً. لقد بدا الخوف على وجه الطفل الصغير روجر ـ مثل اسم الاب ـ مثلما حصل لبيل قبل تسع سنوات، عندما اطلق روجر ـ الاب ـ رصاصة استقرت في الجدار بين بيل وأمه لكن هذه المرة لم يستطع قبول فكرة ان تتعرض امه للضرب، فما كان منه الا ان اخرج عصا لعبة الجولف.

وفتح باب الغرفة ليجد امه على الارض والاب يضربها، فصرخ به بيل طالباً منه التوقف عن ضربها. فما كان منه الا ان هدأ وجلس على كرسي بالقرب من السرير. ويشير بيل الى انه كان فخوراً بدفاعه عن امه، لكنه كان في الوقت نفسه حزيناً لانه لم يكن يقبل واقع ان يقوم رجل شديد الطيبة بمحاولة التخلص من آلامه عبر جرح الآخرين.

إن بيل كلينتون يرسم صورة نقية لأمه. ويصفها بأنها كانت لا تملك سوى صداقات كثيرة في مجال العاملين بميدان نشاطها من اطباء وممرضين وبقية العاملين في قطاع المستشفيات وبأنها كانت شديدة الاخلاص لمرضها. وقد عرفت دائما كيف تحافظ على نشاطها وعلى تفاؤلها على الرغم من ظروف حياتها القاسية. وكانت هوايتها الرئيسية هي سباقات الخيول لكن كانت لا تراهن إلا قليلاً.

لقد اضطرت الأم بسبب ادمان روجر كلينتون على الكحول الى ان تطلب الطلاق وانفصلت مع ولديها عنه. لكنه توسل لهم بأن يعودوا، وكان يمضي ساعات في سيارته امام المنزل بل ونام مرتين في الممر الاسمنتي الذي يؤدي اليه، وذات مرّة طلب من بيل ان يركب معه بسيارته فقد قاده الى جانب بيتهم القديم وتوقف خلفه طالباً بالحاح وتوسل من الابن ان يتدخل لدى والدته ويقنعها بقبول عودتها إلى المنزل. ثم اخذ يجهش بالبكاء.. ووعد بأنه سوف يغير سلوكه تماماً. يقول بيل كلينتون عن ذلك الموقف:)لقد كان مخلصاً فيما يقول لكنني لم أكن اصدق ذلك... انه لم يرد ابداً ان يفهم عجزه حيال الكحول وبانه لن يستطيع ان يخرج منه وحده).

بعد جهود كبيرة عاد الاب الى المنزل، لكنه مرض بعد فترة قصيرة، وهذا ما يدعو بيل كلينتون الى القول: (لقد كنت سعيداً جداً لانني استطعت ان اكون بجانبه خلال الاشهر الاخيرة من حياته. وعندما كان الاب بعيداً عن الاسرة حصل بيل من المحكمة على حكم بأن ينال اسم كلينتون رسمياً بعد ان كان قد استخدمه عملياً لسنوات عديدة، ومن هذه الاحداث كلها يخرج بيل كلينتون بالنتيجة التالية: (ان تدهور زواج اهلي والطلاق ثم المصالحة امور كان لها تأثيرها على توازني العاطفي).

ولا يكتفي بيل كلينتون بحديثه في ذكرياته لتلك الفترة عن اسرته وانما يحكي عن الحي الذي كان يسكنه وعن جيرانه وعن الشباب الذين رافقهم.. ويعود مرّة اخرى للحديث عن اسرة حسين قائلاً: (ان افراد اسرة حسين الستة اي الايطاليين ـ السوريين الذين كنت قد تحدثت عنهم سابقاً، كانوا يسكنون في منزل صغير بآخر الشارع. وكانوا ينفقون اموالهم كلها في التغذية.. ففي فترة عيد الميلاد وفي العديد من المناسبات الاخرى خلال السنة كانوا يقدمون لسكان الشارع كلهم اطباقاً ايطالية من الطعام. ولا أزال اسمع صوت ماما جينا وهي تقول: (بيبيل، بيبيل، خذ قليلاً ايضاً من هذا الطبق).

كان بيل كلينتون طالباً عادياً في المدرسة الثانوية، وقد تركت لديه تلك الفترة ذكريات جميلة (وكنت احب الدروس وأصدقائي وفرقة الأوركسترا الموسيقية) كما يقول، ثم يضيف في موضع آخر (في المدرسة الثانوية وقعت بغرام الموسيقى وخاصة موسيقى الجاز) ولكنه كان يعاني في الوقت نفسه من إحساس بالقلق لم يكن يفهم مصدره وعبر عنه في نص كتبه عن سيرته الذاتية، بناء على طلب أستاذ اللغة الإنجليزية.

وتقول المقاطع التي ساقها من ذلك النص: (إنني كائن غير صلب وواقع تحت تأثير قوى مختلفة إلى درجة أنني اشك أحياناً بمعنى وجودي، إنني مفارقة حية، إذ أنني متدين بعمق، لكنني لست واثقا بدرجة كافية بمعتقداتي كما ينبغي أن أكون، ابحث عن المسؤوليات وانا بصدد الهروب منها في الوقت نفسه احب الحقيقة، ولكنني الجأ غالباً الى الكذب. واعرف بشراً بعضهم قريبون الى قلبي، لكنهم لم يعرفوا ابدا متعة العيش.

ارغب واجهد كي اكون مختلفاً عنهم، ولكنني لست غالباً سوى ترداداً كاملاً لهم، كم هي مقيتة كلمات انا، ولي (..) ان الاشياء الوحيدة التي تسمح باستخدامات مقبولة لهذه الكلمات انما تتمثل في القيم الكونية، التي نادرا ما نكون قادرين على ربطها بالايمان والثقة والحب والمسؤولية والاسف والمعرفة (...) انني اجهد إذاً كي لا اكون المنافق الذي اكرهه من دون ان انكر القوة الشريرة للانا لدى هذا الشاب الذي هو أنا، انني سأعمل كي اصبح رجلاً).

مصافحات أولى للسياسة

كي يصبح رجلاً، اهتم بيل كلينتون بالسياسة بشكل جدي منذ ان كان في المدرسة الثانوية، كان يفكر آنذاك بأنه يطمح بمنصب سيناتور لكنه كان في الواقع يصبو الى ما هو ابعد، ولا يتردد في القول: (كنت في عمقي احس بانني مثل ابراهام لنكولن عندما كتب اثناء شبابه: سوف ادرس واحضر نفسي فلربما ان دوري سوف يأتي).

وكانت هناك شخصية اخرى قد تركت اثرا مستمرا في حياة بيل كلينتون، ففي صيف ١٩٦٣ ويوم ٢٨ آب بالتحديد، اي قبل تسعة ايام فقط من بلوغه سن السابعة عشرة، كان مستلقيا على كرسي أمام جهاز التلفزيون عندما رأى على الشاشة القس الاسود مارتن لوثركنغ وهو يلقي خطابا، هذا المشهد يصفه كلينتون بالكلمات التالية:

(لقد حضرت اكبر خطاب في حياتي) كان مارتن لوثر كينج واقفا امام تمثال لنكولن ويحكي عن اميركا التي حلم بها، وعبر ايقاع يذكر بلهجة العبيد القدماء وبصوت راعد وزاخر بالانفعال في الوقت نفسه كان يتوجه بكلامه للجموع الغفيرة المحتشدة امامه والى ملايين الاميركيين الذين كانوا يتسمرون مبهورين مثلي امام شاشات التلفزة، كان يقول بانه حلم بقدوم يوم يمكن لابناء العبيد القدامى ولابناء مالكي العبيد القدامى ان يجلسوا معا حول مائدة الاخوة على هضاب الارض الحمراء في جورجيا (ثم اضاف انه قد حلم ايضاً بأن يسكن ابناؤه الاربعة ذات يوم بلاداً لا يتم الحكم عليهم فيها من خلال لون جلودهم وانما على اساس ما يتسمون به من صفات).

ومن اللحظات التي يؤكد بيل كلينتون على انها كانت ذات اثر كبير في حياته تلك التي شهدت اغتيال الرئيس الاميركي جون كيندي، وهو لا ينسى تلك الكلمات التي قالها الرئيس ليندون جونسون يوم تسلم مهام منصبه كرئيس للولايات المتحدة اثر مقتل كيندي، حيث ردد امام اولئك الذين قاموا بتنصيبه: (كنت مستعداً لان ادفع كل ما املك من اجل ان لا اكون امامكم اليوم).

نال بيل كلينتون الشهادة الثانوية في ٢٩ أيار ١٩٦٤، في ١٢ أيلول من السنة نفسها توجه برفقة والدته الى واشنطن حيث كان سيتقدم للتسجيل بجامعتها، اي في جامعة جورج تاون ويشير الى انه خلال العامين الأوليين من دراسته لم يغامر بالذهاب ابعد من حرم الجامعة، او الاماكن المحيطة بها مباشرة، وكان اكثر ما اثار انتباهه في تلك الجامعة درس الاستاذة كارول كيجلي حول تطور الحضارات وقد كان ذلك الدرس اجبارياً بالنسبة لجميع طلبة السنة الاولى، ولم تكن تلك الاستاذة تتردد في توجيه الادانة لـ (افلاطون) لانه وضع (العقلانية المطلقة) فوق (التجربة الواقعية)، ولهذا كانت تنهي غالباً حديثها بالقول: (افلاطون فاشي).

وقد ثابر بيل كلينتون خلال سنته الدراسية الجامعية على الاهتمام بدراساته للمرة الاولى ذلك انه فيما بعد وطيلة العامين الاخيرين من دراسته في جامعة جورج تاون واقامته لفترة في جامعة اكسفورد اولى اهتمامه الرئيسي للسياسة واعطى الكثير من جهده لدعم المرشحين الديمقراطيين في مختلف العمليات الانتخابية التي خاضوها.

وكانت حرب فيتنام تزداد استعارا عندما حصل بيل كلينتون على وظيفة (سكرتير مساعد في لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس الاميركي التي كان يتولى رئاستها السيناتور فولبرايت. كان ذلك في وقت اصبحت فيه تلك اللجنة مركز نقاشات السياسة الخارجية الاميركية لا سيما فيما يتعلق بالمأساة الفيتنامية.

هكذا امن ذلك العمل المتواضع لبيل كلينتون ان يتابع تلك النقاشات الجارية، كما وفر له الامكانية المادية لمتابعة دراسته من دون مساعدة اهله الذين كانوا بحاجة لمبالغ مالية لاستكمال علاج الاب المريض. هذا في الوقت الذي كان بيل كلينتون يخشى ان يضطر لترك جامعة جورج تاون كي يعود الى اركانساس، حيث كلفة الدراسة اقل، مما يتناسب مع موارد الاسرة الضئيلة، هكذا كان العمل الذي وجده في الكونغرس حاسما بالنسبة لدراسته، بل وربما لمسيرة حياته كلها، يقول: (بفضل تلك الصدفة المعجزة استطعت البقاء في جامعة جورج تاون مع فرصة العمل في اطار لجنة الشؤون الخارجية، وربما ان حياتي ما كان لها بالقطع ان تكون هي نفسها لو لم يقترحوا علي مثل ذلك العمل).

كانت وظيفة بيل كلينتون تتطلب منه الذهاب كل يوم الى مبنى الكونغرس، ولذلك اهداه ابوه وامه سيارتهما القديمة البيضاء من طراز بويك الامر الذي ملأ قلبه بالفرح، كانت مهمة بيل هي ان ينقل الوثائق الادارية من الكابيتول الى مكتب السيناتور، وكان يقوم احياناً بقراءة الصحف وارشفة المقالات المكرسة لهذا السيناتور او ذاك. في الوقت نفسه كان بيل يتابع دراساته الجامعية، لكنه كان يخف فور انتهائها الى الكونغرس.

لكن بمقدار ما كانت تزداد ضراوة المعارك في فيتنام كان يتركز عليها اهتمام الرئيس والكونغرس، بل واميركا كلها، ومن حيث ان الخسائر كانت تتعاظم في صفوف الجيش الاميركي من دون ان يرتسم في الافق اي منظور لانتصار حاسم، كان

www.smart10.com

معارضو الحرب يثبتون اقدامهم ويكسبون مواقع جديدة، وبالتالي كانت المظاهرات تتعاظم والنقاشات داخل الكونغرس تزداد حدة، ولم تكن معارف بيل كلينتون آنذاك تسمح له بان يتخذ موقفا معينا، لكنه كان نصيرا للرئيس جونسون، لذلك كان يشك بما يقال عنه، على الرغم من تزايد ضغط الاحداث.

ولم تكن حرب فيتنام وحدها هي التي تستقطب اهتمام الرأي العام، بل كانت هناك الاضطرابات التي شهدها احد احياء لوس انجلوس عام ١٩٦٥ الى جانب بروز جيل مناضل من السود انقسمت حياله مواقف الرأي العام، حيث ان قسما منه دعم هذه الحركات الجديدة، واقترب من مواقع اليسار، بينما عارضها القسم الآخر، مقتربا من مواقع اليمين، وبدا الانقسام نفسه ايضاً حيال حق الاقتراع الذي اصدره ليندون جونسون، وجاء بعده عدد من الرؤساء ليكملوا الطريق نحو منح الاميركيين (الحقوق المدنية) ولا ينسى بيل كلينتون ان يؤكد بان الديمقراطيين قد ساندوا غالبا ان يتمتع الجميع بكل (الحقوق المدنية).

عام حافل

حصل بيل كلينتون على شهادته الجامعية ليحصل بعد ذلك على ترشيحه لمنحة رووس الدراسية الى جامعة اكسفورد وذلك بعد اجتيازه عدة امتحانات ومقابلات صعبة مع لجنة المحلفين المكلفة بالاختيار وكان ترشيحه باسم ولاية اركنساس كان فرحه كبيراً بذلك اذ (للحظة توقفت الارض عن الدوران)، كما يقول كان روجر كلينتون الذي يذكره تحت تسمية (بابا) قد توفي قبل ذلك بفترة قصيرة وتنبأ لبيل قبل وفاته بفترة قصيرة بـ (مستقبل زاهر).

يقدم بيل كلينتون عام ١٩٦٨ على انه كان (احدى السنوات الاكثر تمزقا والاكثر اضطرابا في التاريخ الاميركي) وكان جونسون قد بدأ تلك السنة معتقدا ان بامكانه المحافظة على الخط السياسي نفسه في فيتنام الى جانب متابعة برنامجه في محاربة البطالة والجوع والفقر ثم الترشيح لفترة رئاسية ثانية.

وما يؤكده بيل كلينتون هو انه لم يكن يكره جونسون وانما كان يرغب فقط في ان تتوقف الحرب. الظاهرة التي يشير اليها في ذلك السياق هي ان مجموعات من الجمهوريين وعدداً كبيراً من الديمقراطيين من ابناء الطبقة العمالية كانوا قد جنحوا نحو اليمين كرد على المظاهرات التي كان الشباب يقومون بها، هكذا وجد محافظون من امثال ريتشارد نيكسون والحاكم الجديد لكاليفورنيا ورونالد ريغان من يصغي لهم، هكذا ايضا ابتعد الديمقراطيون عن جونسون وحاول اليساريون منهم اختيار مرشح منافس له للحصول على تأييد الحزب لخوض الانتخابات الرئاسية.

كان خيارهم الأول هو روبرت كيندي الذي كان يدعو بقوة الى ضرورة الوصول الى حل للصراع الفيتنامي عن طريق المفاوضات، لكنه رفض العرض، وكذلك رفضه السناتور جورج ماكجفرن ليقبله اخيرا السناتور يوجين مكارثي، وبعد جولات انتخابية ومنافسات في العديد من الولايات الاميركية فاجأ جونسون الجميع في ٣١ آذار ١٩٦٨ اذ اعلن للأمة الاميركية بانه سوف يقلص جذريا عمليات قصف فيتنام الشمالية بأمل الوصول الى حل للنزاع ثم اطلق بعد ذلك (قنبلته) عندما اعلن:

بوجود ابناء اميركا في ساحات المعارك البعيدة ومع آمالنا بسلام يسود العالم كله ولكنها آمال يتم خرقها كل يوم، لا اعتقد بانه ينبغي عليّ ان اكرس ساعة اخرى او يوما آخر لخدمة قضايا شخصية متحزبة، بالنتيجة انني لن اطالب ولن اقبل ان يعينني حزبي لفترة رئاسية ثانية).
كانت مشاعر كلينتون مزيجا من الحزن على جونسون الذي (فعل الكثير لاميركا على المستوى القومي) ومن الفرح من اجل البلاد في افق الشروع بانطلاقة جديدة.

بعد اربعة ايام فقط من ذلك الحدث جرى اغتيال مارتن لوثركينغ في مدينة ممفيس التي ذهب اليها من اجل دعم حركة (منظفي الشوارع) المضربين وكان طيلة العامين الاخيرين من حياته قد ناضل من اجل (الحقوق المدنية) للسود لكنه وسع ايضا من نضاله ضد الفقر واعلن معارضته الشديدة للحرب وكان اغتيال الدكتور (لوثركينغ) قد هز الامة الاميركية بمقدار ما كان قد هزها اغتيال الرئيس جون كيندي قبل ذلك يقول بيل كلينتون عن اغتيال القس الاسود: (لقد ترك موت مارتن لوثر كينغ فراغاً في امة كانت بحاجة ماسة الى انخراطها في طريق اللاعنف والى ايمانها بأميركا، هذا في الوقت الذي تواجه فيه خطر ان تضيع فيه بين هذا وذاك).

وصل بيل كلينتون الى جامعة (اكسفورد) عام ١٩٦٨ والتي كانت الحياة الدراسية فيها تتمحور حول اقتسامها او معاهدها التسعة والعشرين والتي لم تكن الدروس فيها مختلطة بعد، وحيث كان عدد الفتيات اقل كثيرا من عدد الطلبة الذكور. كان كل قسم او معهد في الجامعة مزودا بمكتبة خاصة به. هذا وكان العديد من مشاهير العالم في مختلف ميادين العلوم البحتة والعلوم الانسانية والآداب.

في كانون الأول ١٩٦٨ عاد بيل كلينتون من اكسفورد في بريطانيا الى اميركا من اجل حضور حفلة زفاف امه على جيف داوير بعد وفاة روجر كلينتون، وقد علق بيل كلينتون على ذلك بالقول: كان الكثير من اصدقاء امي حاسمين في معارضتهم لزواجها من جيف داوير، لانه كان قد عرف السجن سابقا، وكانوا يعتقدون انه لا يزال غير اهل للثقة) مع هذا تم الزواج في ٣ كانون الثاني ١٩٦٩.

وقد غنى بيل يومها للمدعوين برفقة احد اصدقائه، ثم بعد ايام عاد بيل كلينتون الى انجلترا لمتابعة دراساته في اكسفورد واجرى اثر عودته فحصاً طبياً في لندن حيث صرح الطبيب كما جاء في اليوميات التي كان بيل يقوم بكتابتها قبل شهرين تقريباً، بانه: (احد النماذج الاكثر سلامة في العالم الغربي، وهو جدير بالعرض في مدارس الطب وفي المعارض وحدائق الحيوانات والكرنفالات ومعسكرات التدريب).

ما بعد ١٩٧٣

في ١٩٧٣ عاد بيل كلينتون إلى اركنساس، حيث كانت النقاشات السياسية محتدمة بسبب فضيحة ووتر جيت، واستمرار الحرب الفيتنامية. وساد الاعتقاد لدى الديمقراطيين المحليين بأنه قد يكون باستطاعتهم كسب بعض الأصوات أثناء الانتخابات البرلمانية في منتصف الفترة الرئاسية، لكن لم يرد أحد من السياسيين المعروفين خوض معركة رأوا أنها خاسرة سلفاً، وهنا حلم بيل كلينتون بأن يرشح نفسه، الأمر الذي كان يبدو غريباً للوهلة الأولى، فهو قد عاد إلى المنطقة منذ ستة أشهر فقط.

وبعد فترة غياب استمرت تسع سنوات. لكن كان لديه منطق آخر تلخصه الجملة التالية: (كنت شاباً وعازباً ومستعداً للعمل ليل نهار. وحتى في حالة الفشل، إذا لم يكن ذريعاً، فإنني كنت اعتقد انه لن يسيء لي في حملة انتخابية مقبلة. بالطبع، كان عدم خوض المعركة الانتخابية ربما يعني انه علي أن اشطب المسار السياسي الذي كنت احلم به).

في تلك الفترة جاءت هيلاري لزيارته، وبعد وصولها بقليل اتصل به جون داور، الذي كان قد قبل أن يكون المستشار الرئيس في تحقيق اللجنة القانونية المكلفة بالإجابة عن قرار توجيه، أو عدم توجيه، الاتهام للرئيس نيكسون بسبب فضيحة ووترجيت، ولقد اقترح عليه، بناء على توصية صديق، أن يترك التدريس الجامعي، ويلحق بفريقه ويساعده في توظيف قضاة شباب آخرين. كان كلينتون، إذن أمام الخيار بين الترشيح للكونغرس وبين الوظيفة المقترحة التي يتمناها الكثيرون، لقد طلب نصيحة هيلاري.

واتصل بجون داور كي يعلن له رفضه لاقتراحه لأنه اختار الترشيح لعضوية الكونغرس، كان واضحاً أن صاحب الاقتراح كان يعتقد أن بيل كلينتون قد اقترف برفضه خطأ فادحاً، الأمر الذي قد يكون صحيحاً إذا تمت رؤية المسألة بقليل من العقلانية، هنا أيضا كان لبيل كلينتون رأي آخر عبر عنه بما يلي: (كما قلت سابقاً فإن قسماً كبيراً من حياتنا تتم صياغته تبعاً للعروض التي نرفضها بقدر ما تتم صياغته تبعاً للعروض التي نقبلها).

ذهب بيل كلينتون برفقة هيلاري قبل عودتها إلى كامبردج لمقابلة حاكم اركنساس السابق اورفال فايبوس قبل أن ينطلق بحملته الانتخابية في المناطق الشمالية من الولاية التي عرفت جولته الأولى، لتليها عشرات الجولات الأخرى من النوع نفسه. ولم يكن بيل يتردد في أن يقرع أبواب الناخبين واحداً بعد الآخر. وعندما أعلن ترشيحه رسمياً وجد أمامه ثلاثة خصوم، هم: سناتور ديمقراطي محافظ ومحام جذاب ورئيس بلدية مدينة غرينلاند. في الانتخابات الأولية حصل بيل على ٤٤% من الأصوات.

ولم ينل المرشح الذي احتل المرتبة الثانية سوى ٢٦% منها، لكن النتيجة في الانتخابات النهائية لم تكن لصالحه، إذ فاز المرشح الجمهوري بنسبة ٥٢% من الأصوات مقابل ٤٨% لبيل كلينتون المرشح الديمقراطي. لم تكن الهزيمة هي التي تثير قلقه، ولكن بالأحرى كيفية تسديد الديون التي تكدست عليه من جراء الحملة الانتخابية. والتي كانت تزيد على أربعين ألف دولار.

وإذا كان قد استطاع أن يتجاوز بسهولة مرارة الهزيمة الانتخابية، فإنه احتاج إلى وقت كي يفهم (الخدمة) التي قدمها له المرشح الجمهوري عندما فاز عليه. يقول: (لو إنني كنت موجوداً في واشنطن - في حالة قبول الوظيفة التي كانت مقترحة

عليه ـ فإنني على ثقة بأنه ما كان لي أبداً أن يتم انتخابي رئيساً، ولكنت خسرت الثمانية عشرة سنة الرائعة التي كانت تنتظرني في اركنساس).

عاد بيل كلينتون للتدريس الجامعي عام ١٩٧٥ ولمدة سنة دراسية كاملة دون أن تقطعها أي تظاهرة سياسية، لكنه بالطبع لم يكن بعيداً تماماً عن السياسة، وكان يهتم في الوقت نفسه بعدة ملفات في الميدان القانوني. كذلك لم يتردد في إعطاء بعض الدروس خلال العطلة الصيفية كي يؤمن بعض الدخل الإضافي.

في القفص الذهبي

ذات يوم عندما كان بيل وهيلاري يتنزهان في مدينة فايتفيل لفت انتباههما منزل صغير يحمل لافتة مكتوب عليها كلمة (للبيع). أبدت هيلاري إعجابها الشديد به ثم تابعا طريقهما. ويوم سفرها عاد بيل مباشرة من المطار لرؤية ذلك المنزل، واشتراه بعشرين ألفاً وخمسمائة دولار، دفع منها ثلاثة آلاف دولار على أن يدفع الباقي كأقساط شهرية. نقل بيل الأثاث القليل الذي كان يمتلكه إلى المنزل الجديد، واشترى بعض الأشياء المتواضعة كي لا يبدو المكان فارغاً.

وعندما عادت هيلاري من السفر استقبلها قائلاً: (هل تتذكرين ذلك المنزل الصغير الذي أعجبك كثيراً؟ لقد اشتريته، وينبغي عليك أن تتزوجيني الآن، فأنا لا أستطيع أن أعيش وحدي فيه. لم تكن هيلاري قد قالت أبداً لبيل، إنها على استعداد للبقاء في اركنساس، لكن هذه المرة قالت نعم. وفي ١١ تشرين أول عام ١٩٧٥ احتفلا بزواجهما في الصالون الكبير لذلك المنزل الصغير.

ويعلق بيل على زواجهما بالقول: (خلال فترة زمنية طويلة لم تخطر لي فكرة الزواج، لكن اليوم وأنا رجل متزوج ينتابني الشعور بأنني قد اتخذت قراراً جيداً، لكنني لم أكن أعرف إلى أين كان يقودني ذلك). ثم يضيف: (ربما أن زواجنا قد أثار في السنوات الأخيرة قدراً من التعليقات أكثر مما أثاره أي زواج آخر في أميركا. وقد أذهلني دائماً أن بعض الأشخاص يسمحون لأنفسهم بإصدار تحليلات وأشكال من النقد أو انهم يصيغون نظريات حول هذا الموضوع).

وحول فلسفته عن الزواج يقول بيل كلينتون ما يلي: (بعد حوالي ثلاثين سنة من الزواج، وبعد ملاحظة تجارب أصدقائي وحالات الانفصال والمصالحات من جديد والطلاق، فهمت أن الزواج بكل ما فيه من أمور رائعة ومن آلام وبكل ما يقدمه من استجابات ومن سقوط للأوهام يصل بمثابة سر لا يمكن بسهولة فهم كنهه بالنسبة لأولئك الذين يعيشونه والى حد كبير هو منيع عن سبر أغواره من قبل أولئك الذين هم خارجه).

ولا ينسى بيل أن يشير بعد هذا إلى انه في ١١ تشرين أول عام ١٩٧٥ لم يكن يفهم شيئاً من هذا كله، كل ما كان يعرفه هو انه يحب هيلاري، وانه كان يريد الحياة معها مع كل ما يفتحه ذلك من آفاق على مختلف الأصعدة، بالإضافة إلى شيء آخر يعبر عنه بالقول: كنت كذلك فخوراً بها ومتحمساً لدخولي في علاقة ربما انه ما كان لها أن تكون كاملة أحياناً ولكنها بالتأكيد لم تكن أبداً مثيرة للضيق. وفي نهاية ١٩٧٥ اتخذ بيل كلينتون قراره بالترشيح لمنصب النائب العام في ولاية اركنساس وحصل على مجموع ٥٥% من مجموع الناخبين.

وفي صيف ١٩٧٦ كان بيل وهيلاري يمضيان عطلة في أوروبا عندما تلقيا رسالة هاتفية تطلب من بيل الاتصال بمقر قيادة الحملة الانتخابية لجيمي كارتر. لقد اقترحوا عليه أن يقود تلك الحملة في اركنساس، فلم يتردد في قبول تلك المهمة إذ كان مؤيداً بلا تحفظ لكارتر، الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة في الولاية بفضل نزعته التقدمية ومعرفته العميقة بالزراعة وعلاقاته الشخصية بعدد من أعيان اركنساس. لقد جاب كلينتون جميع أرجاء الولاية، عند بداية الحملة الانتخابية، للتأكد من وجود مكاتب قادرة على العمل في عموم الدوائر. وعندما انتهت تلك الحملة عاد بيل وهيلاري كي يمضيا عدة اشهر في منزلهما.

خلال الشهرين الأخيرين من عام ١٩٧٦ قام بيل كلينتون بزيارات متكررة إلى كيتل روك من اجل التحضير لاستلام مهام منصبه الجديد في المدينة، وقد اختار فريقاً يعمل معه مؤلفاً من ٢٥% من النساء و ٢٠% من السود، الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل في تلك الفترة. اهتم كلينتون وفريقه بعدة ملفات في مقدمتها ملف البحث عن (طاقات بديلة) للطاقات التقليدية، ويؤكد كلينتون قوله: (خلال عشرين سنة كنائب عام في حكومة اركنساس، ثم كحاكم وكرئيس شجعت دائماً تطوير الطاقات البديلة).

رغبات وإمكانيات

عاش بيل كلينتون نوعاً من الفترة الانتقالية بين عمله كأستاذ جامعي يقوم بتدريس مادة الحقوق وبين مهامه الجديدة كنائب عام في ولاية اركنساس ثم كحاكم لها، وكان أصعب ما في تلك الفترة الانتقالية هو التأقلم مع إجراءات الأمن المطلوبة، لاسيما وانه كان قد تعود أن لا يعتمد سوى على نفسه، إلى جانب حرصه الكبير على حماية حياته الخاصة، لكن كلينتون يعترف في الوقت نفسه بأهمية حماية الشرطة، لاسيما وانه كان قد تعرض لتهديدات مختلفة اكثر من مرة.

وهو يصف العامين الأولين من حياته المهنية الجديدة بالقول: (كانا العامين الأكثر حماساً والأكثر تعباً والأكثر امتلاءً بالرضا ولكن أيضا الأكثر إحساساً بالحرمان في حياتي). لقد كانت معضلته الكبيرة آنذاك تتمثل في أن رغباته كانت اكبر بكثير من إمكانياته. وكانت إحدى المشكلات الكبرى التي واجهها بيل كلينتون كحاكم لاركنساس توافد أعداد هائلة من المهاجرين الكوبيين إلى الولاية، بينما رفضت الولايات الأخرى ورفض الرئيس جيمي كارتر نفسه بذل بعض الجهود لتحمل قسم منهم، هذه المسألة تم استخدامها ضد كلينتون من قبل خصومه في الحملات الانتخابية التالية.

والذين لم يتورعوا في القول بأنه في الوقت الذي يولي فيه حكام الولايات الأخرى أهمية كبيرة لخدمة مواطنيهم وانهم نجحوا في التخلص من الكوبيين فإن كلينتون مشغول اكثر بجيمي كارتر. هذا على الرغم من تأكيد كلينتون بأنه طالب الرئيس كارتر بإلحاح للعمل على تهجير بعض الكوبيين إلى ولايات أخرى وبناء معسكرات لهم هناك. لقد انهزم بيل كلينتون في انتخابات عام ١٩٨٠ ولم يحصل الديمقراطيون سوى على نسبة ٤٨% من الأصوات، مقابل ٥٢% لمعسكر الجمهوريين.
وهو يعيد خسارته لعدة إجراءات اتخذها من موقعه كحاكم، ولكنه يشير إلى أن استطلاعات الرأي قد خدعته إذ أظهرت دائماً تفوقه. ولا يتردد في التشبيه بين ما جرى له وما كان قد عرفه جورج بوش الأب في انتخابات ١٩٩٢. يقول: (إن ما حصل لي عام ١٩٨٠ هو ما كان قد حصل تماماً بالنسبة لجورج بوش (الأب) عام ١٩٩٢. ذلك أن حرب الخليج جعلت شعبيته مرتفعة باستمرار في استطلاعات الرأي التي اخفت العدد الحقيقي لأولئك الذين كانوا مستاءين من عمل إدارته. وعندما قرر الناخبون انهم لن يذهبوا للاقتراع لصالحه فقط لمجرد الحرب، استطعت أن أفوز عليه).

وهكذا يرى كلينتون أن خصمه عام ١٩٨٠، فرانك وايتس استخدم قضية الكوبيين من اجل أن يوجه له الضربة نفسها. لاشك أن خسارة بيل كلينتون لمهام منصبه كحاكم تركت جرحاً ما لديه، ولكن كان للمسألة وجهها الآخر، إذ انه، وكما يقول احب (إيقاع حياته الجديد) حيث اصبح يعود باكراً إلى المنزل، ويمضي أوقاتاً طويلة إلى جانب هيلاري وابنتهما تشلسي. وقرر آنذاك أن يبتعد عن أي تصريح سياسي خلال بضعة اشهر.

وأمضى الكثير من وقته متنقلاً في أرجاء ولاية اركنساس، وقد لاحظ أن الديمقراطيين ممن قابلهم كانوا مصممين على إسقاط الحاكم الجديد، فرانك وايت، وابدوا استعدادهم الكامل لدعمه إذا ترشح من جديد. وفي تلك الفترة قام كلينتون وزوجته بزيارة الأراضي المسيحية المقدسة وزارا العديد من المعالم، وقد عبر بيل عن تلك الزيارة وأثرها في نفسه بالقول: (لقد تركت تلك الرحلة أثراً مستمراً في ذاكرتي. لقد عدت من هناك بقناعات دينية تلوح في الأفق وبإعجاب عميق بإسرائيل وبداية فهم لتطلعات الشعب الفلسطيني وآلامه. ومنذ ذلك الحين بدت المساهمة في المصالحة بين أبناء إبراهيم في الأراضي المقدسة التي رأت ولادة الأديان السماوية الثلاثة بمثابة واجب له الأولوية بالنسبة لي).

بعد عودة بيل كلينتون من تلك الرحلة تزوجت أمه من جديد بعد سبع سنوات من (العزوبية) بتاجر مواد غذائية بالجملة اسمه ديك كيلي، الذي اصبح شريك بيل في لعبة الجولف، كان عمر كيلي اكثر من ثمانين سنة.

ولكنه كان يهزم بيل غالباً في تلك اللعبة. وفي كانون الثاني ١٩٨٣ بدأ بيل كلينتون يهتم بحملته الانتخابية كي يسترجع منصبه كحاكم لاركنساس وفي ١١ كانون الثاني من عام ١٩٨٣ كان يقوم بأداء القسم كحاكم للولاية للمرة الثانية أمام اكبر حشد جماهيري عرفته في تاريخها من اجل تنصيب حاكم. وقد أمضى كلينتون في هذا المنصب عشر سنوات جديدة إذ لم يتركه إلا من اجل المنصب الأرفع أي رئيس الولايات المتحدة.

وقد كانت عشر سنوات عرف فيها الكثير من البشر ومن الأحداث أيضاً.. ففي ١٩٨٣ وخلال فصل الصيف، جرى اجتماع لجميع حكام الولايات المتحدة الأميركية و أثناء مأدبة غداء تم تنظيمها في الهواء الطلق بالمزرعة التي يمتلكها جورج بوش نائب الرئيس الأميركي رونالد ريغان آنذاك كان اللقاء الودي الأول بين الرجلين كانت هيلاري وتشلسي ترافقان بيل وكان عمر الطفلة آنذاك ثلاث سنوات فقط وفجأة توجهت نحو جورج بوش نائب الرئيس وقالت له إنها بحاجة للذهاب إلى دورة المياه، فأمسك بيدها بلطف وقادها إلى حيث ينبغي، وكان تعليق بيل كلينتون: (كانت تشلسي سعيدة وممتنة. وقد تأثرنا هيلاري وأنا بأدب جورج بوش ولباقته. ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة).

وفي ١٩٨٤ كان موعد إعادة انتخاب كلينتون لمنصب الحاكم قد حل؟ ولكنه كان واثقا من نفسه وحتى لو أن شعبية الرئيس ريغان الجمهوري كانت تتعاظم اكثر في اركنساس. لقد فاز كلينتون بنسبة ٦٣% من أصوات الناخبين وأخذ يشارك اكثر فأكثر في نشاطات ذات طابع أميركي عام، مثل صياغة الأفكار خطاب الرئيس ريغان حول وضع الاتحاد الأميركي عام ١٩٨٥.

والقيام بعدة مهام لصالح الحزب الديمقراطي. وفي ١٩٨٦ حضر لإعادة انتخابه من جديد ولأربع سنوات هذه المرة وليس لعامين فقط، كما كان الأمر في المرات السابقة، وقد فاز في الانتخاب بنسبة ٦٤% من أصوات الناخبين يقول كلينتون عن محصلة نهاية الثمانينيات بالنسبة له: (بفضل إطالة مدة فترة انتخابات الحاكم لأربع سنوات وبفضل إخلاص الفريق الذي كان يعمل معي وما قدمه المستشارون وعلاقات العمل الجيدة مع البرلمان وصلابة أشكال الدعم السياسي لي، بفضل هذا كله كنت متحررا ذهنيا إلى الدرجة التي تسمح لي بالانطلاق إلى الحلبة السياسية القومية).

وعلى قاعدة خبرته في ميادين التربية والاقتصاد والحماية الاجتماعية من موقعه كحاكم لاركنساس وكرئيس لجمعية الحكام الأميركيين على مستوى الحكومات، أصبحت تتم دعوته إلى العديد من المحاضرات في مختلف المناطق الأميركية. ففي عام ١٩٨٧ وحده ألقى ٢٥ محاضرة في المدن الأميركية الكبرى وقد كانت أربع منها للمشاركة في تظاهرات للحزب الديمقراطي ولكنها خدمت جميعا في توسيع دائرة اتصالاته وتغذية الإشاعات المتعلقة باحتمال ترشيحه للمنصب الرئاسي.

الأسباب الثلاثة

يقول (كنت قد بلغت الأربعين من العمر في ربيع عام ١٩٨٧ وكانت هناك ثلاثة أسباب تدفعني نحو خوض السباق للرئاسة:

أولا كان التاريخ قد اثبت أن الديمقراطيين لهم آنذاك حظ كبير في الفوز من جديد بالبيت الأبيض. وكان من الواضح أن جورج بوش نائب الرئيس سيكون المرشح الرسمي للحزب الجمهوري هذا وقد كان المرشح الوحيد الذي تم انتخابه رئيسا بعد أن كان قد شغل منصب نائب الرئيس هو (مارتن كان بورين) عام ١٨٣٦،السبب الثاني كان اقتناعي بأنه ينبغي للبلاد أن تأخذ منحى آخر غير الذي كانت قد اختارته، أما السبب الثالث الذي دفعني للترشيح في الانتخابات الرئاسية فهو اعتقادي بأنني كنت قد فهمت ما يجري وأنني كنت أستطيع أن اشرح ذلك للشعب الأميركي).
هذه هي الأسباب التي حددها كلينتون لدخوله معترك الرئاسة الأميركية.

كانت رغبة بيل كلينتون آنذاك في الوصول إلى البيت الأبيض قوية وجامحة. ولكن وكما يقول هو شخصياً: (إن الطموح محرك قوي كان قد قاد أكثر من مرشح للرئاسة إلى جهل حدود إمكانياته ولكن أيضاً جهل المسؤوليات المرتبطة بالمهمة الرئاسية الجارية).

وعلى الرغم من وجود الرغبة القوية بالترشيح للرئاسة فإن بيل كلينتون لم يرشح نفسه عام ١٩٨٧ (من اجل انتخابات عام ١٩٩٨). يقول: (في ١٩٨٧ كان الطموح والثقة بنفسي وبقدراتي يمكن أن يدفعاني إلى الترشيح، لكنني لم افعل ذلك. إن ما دفعني لاتخاذ ذلك القرار كان هو العنصر الوحيد الذي لا يمكن للسياسة أن تطاله، لقد كانت تشلسي وراء قراري). كيف؟ ذات يوم سألته: (أين سنمضي العطلة في الصيف المقبل؟) وعندما أجابها بأنه قد لا يستطع أن يأخذ عطلة إذ سوف يرشح نفسه للانتخابات الرئاسية، أردفت الطفلة قائلة: (إذن سوف نذهب بدونك، ماما وأنا: (لقد كان ذلك أكبر من أن أستطيع تحمله) هكذا علق بيل كلينتون واتخذ قرار عدم الترشيح. أمضى بيل كلينتون أربع فترات كحاكم لولاية اركنساس، وتردد كثيراً قبل أن يرشح نفسه لفترة خامسة لإحساسه بأنه قد قدم ما عنده وبأن أهل اركنساس يريدون التغيير، لكنه رشح مع ذلك وفاز بنسبة ٥٧% من أصوات الناخبين، وهكذا مارس مهام منصب الحاكم لمدة أربعة عشر عاماً، أي أطول مدة عرفها أي حاكم سابق للولاية. ولقد تردد بيل كلينتون طويلاً أمام الترشيح للانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٢.

وكان الباعث الأول لتردده واقع إن مختلف استطلاعات الرأي كانت تعطي للرئيس جورج بوش شعبية كبيرة تزيد عن نسبة ٧٠% من أصوات الناخبين على قاعدة انتصاره بحرب الخليج عام ١٩٩١. وكانت تلك هي الورقة الأساسية لدى الرئيس وفريقه الانتخابي.

وذات يوم تلقى بيل كلينتون اتصالاً هاتفياً من البيت الأبيض، وسأله المتحدث، وهو أحد كبار موظفي إدارة بوش، عما إذا كان ينوي الترشيح للانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٢.

وعندما أخبره بأنه لا يزال متردداً، قال له المتحدث كي يدخل في ذهنه بأنه سوف يتم الهجوم عليه شخصياً إذا صمم على الترشيح، ما يلي: (هكذا تسير الأمور في واشنطن فالصحافة بحاجة إلى ضحية في كل انتخابات، وأنت الذي سوف نعطيه لها). ثم أضاف: (إننا سننفق كل ما ينبغي من اجل أن نستقدم من ينبغي كي يقول ما ينبغي كي نخرجك من السباق، ولن ننتظر حتى اللحظة الأخيرة كي نفعل ذلك). كان الرد هو التصميم على الترشيح..

لقد دقت ساعة كلينتون هذه هي العبارة التي قرأها بيل على زجاج أحد المتاجر عندما خرج ذات صباح من شهر اكتوبر ١٩٩١ من الباب الخلفي لمقر اقامة الحاكم اركنساس ليمارس رياضة الجري، كعادته كل يوم. كانت تلك الجملة تعني ان حملته الانتخابية لخوض معركة الانتخابات الرئاسية الاميركية لعام ١٩٩٢ قد بدأت.

لم يكن قد اعلن بعد ترشيحه رسميا.. لكن في ظهر ذلك اليوم، ٣ اكتوبر اعلن ذلك بخطاب استمر لاكثر من نصف الساعة، شكر فيه اهله واصدقاءه ومؤيديه لانهم اعطوه القوة والشجاعة «للذهاب الى ابعد من مسيرة حياة عادية والتخلي عن عمل احبه والتزامي لأكون في خدمة قضية اكبر هي المحافظة على الحلم الاميركي واعادة الامل للطبقة الوسطى المنسية وتقديم مستقبل لاطفالنا» حسبما قال حرفيا قبل ان يختتم باقتراح ميثاق جديد على الاميركيين.

ينص على الانفتاح اكثر بالنسبة للجميع ومسئوليات اكبر بالنسبة لكل فرد واعطاء معنى اكبر للمصلحة العامة! كان اهم تعليق بعد الخطاب هو بالنسبة لبيل كلينتون ذلك الذي صدر عن ابنته تشيلسي حيث قالت له: «خطاب جميل، سعادة الحاكم!».

قنبلة اسمها فلاورز

كانت الخطوة الاولى المطلوبة هي جمع الاموال اللازمة للحملة الانتخابية وايجاد البنية التنظيمية اللازمة، وبالطبع تم التوجه اولا للناخبين الديمقراطيين انفسهم، وقد سارت الحملة الانتخابية على افضل شكل ممكن حتى ٢٣ يناير ١٩٩٢ حيث تم اخطار وسائل الاعلام في اركانساس عن ان صحيفة «ستار» سوف تنشر في عددها الصادر في ٤ فبراير رواية جينفر فلاورز التي زعمت بأنه كانت لها علاقة عاطفية مع بيل كلينتون لمدة اثنتي عشرة سنة.
ويشير كلينتون الى ان اسم فلاورز كان في عداد اسماء السيدات الخمس اللواتي زعم لاري نيكلوس بأنهن قمن بمغامرات معه اثناء حملة ١٩٩٠ الانتخابية لمنصب حاكم الولاية، وآنذاك نفت فلاروز ذلك وفي البداية لم يعر كلينتون وفريقه اهتماماً كبيرا لذلك الامر وتابعوا الحملة الانتخابية حسب البرنامج المقرر.

لكن فلاورز اكدت انها تمتلك تسجيلات اثنتي عشرة محادثة هاتفية مع بيل كلينتون تؤكد صحة اقوالها، هكذا اخذت قضية فلاورز اهمية كبيرة وكان لها وقع القنبلة ولم تقصر الصحافة في استغلالها. لكن بعض المقالات الصادرة تشككت بصحة اتهاماتها ونقلت بعضها ان فلاورز قد تلقت مبالغ مالية مقابل اثارتها هذه الفضيحة وأنها كانت «قد نفت تماماً قبل عام وجود اية علاقة بينها وبيني» حسبما يقول بيل كلينتون ثم يشير الى ان وسائل الاعلام كشفت بعض اكاذيبها حول دراساتها وحياتها المهنية.

لكن هذا لم يمنع من تعاظم الاتهامات مما اضطر بيل كلينتون وزوجته هيلاري للاشتراك في برنامج تلفزيوني لتكذيبها واثبات متانة واخلاص علاقتهما الزوجية، يقول كلينتون: «لم يكن الامر سهلا، اذ كنا نريد امكانية الدفاع عن انفسنا ضد الحملة الاعلامية القائمة وجذب الانظار نحو الموضوعات الجوهرية.

دون صب الزيت عى النار فيما يخص الحملات والهجومات الشخصية والتي كنت قد اعلنت اسفي للجوء اليها وحتى قبل ان تمسني انا شخصيا» ويضيف: «ثم انني كنت قد قلت بأنني لم اتصرف في حياتي كقديس، واذا كان هذا هو المعيار المطلوب كي يكون المرء رئيسا فينبغي ايجاد انسان آخر غيري».

كان السؤال الاول للصحافي اثناء البرنامج التلفزيوني هو: هل كان لك علاقة مع جينفر فلاورز؟ فأجاب كلينتون بالنفي، وعندها اردف الصحافي: «هل كان لديك علاقات اخرى؟» يقول كلينتون اليوم بانه ربما كان عليه ان يجيب آنذاك بنفس الجواب الذي ردت به السيدة «روزالين كارتر» عندما تم توجيه نفس السؤال لها بقولها:

«لو كان لي علاقات فسوف لن اقول لك ذلك»، لكن كلينتون اجاب آنذاك بـ «اعترافه» بانه قد «اساء» لعلاقته مع زوجته هيلاري وبأنه قد تحدث عن هذا الامر اكثر من اي سياسي آخر.

ذهب الصحافي ابعد في استفزازه واعاد السؤال نفسه، واصفا زواج بيل وهيلاري بانه «مصالحة توفيقية» هنا يشير كلينتون الى انه ربما اراد «تهشيم وجهه» لكنه اجاب بهدوء: «دقيقة واحدة، امامك شخصان تربطهما علاقة حب، وهذا لا علاقة له بمصالحة او اتفاق، انه زواج»

وعندها اضافت هيلاري:

«اذا كنت هنا فهذا لانني احبه واحترمه وانا معجبة بما فعله ربما فعلناه معا انظر اذا كان هذا لا يكفي للناس فما عليهم اذن سوى ان لا يقترعوا لمصالحة» هنا تلطف جو اللقاء قليلا، ثم تبادل بعض العبارات الجميلة عن هيلاري وعن حياتها المشتركة مع بيل ولكن هذه كلها تم حذفها اثناء عملية «المونتاج» وحيث تم تقليص المقابلة لعشر دقائق فقط ولا ينسى بيل كلينتون.

ان يشير الى حادث سقوط المصباح الضوئي القوي والساخن، الذي كان مسلطا على المشاركين في البرنامج لتأمين الآثار اللازمة، فوق رأس هيلاري والتي نجت منه عندما جذبها بيل له بسرعة قبل استقراره في المكان الذي كانت تجلس فيه تماما، وبعد انتهاء البرنامج عاد بيل وهيلاري الى المنزل حيث استقبلتهما ابنتهما شيلسي بالجملة الشامية: «اعتقد بانني سعيدة لان لي اهلا مثلكما».

وفي قلب الحملة الانتخابية ايضا انفجرت قضية وايت ووتر التي تم اتهام هيلاري كلينتون فيها بتحقيق مكاسب غير مشروعة وبشراكة زوجها من عمليات شراء وبيع الاراضي خلال اواخر عقد السبعينيات وكانت صحيفة «نيويورك تايمز» بمثابة رأس الرمح في تلك الحملة،

اما الـ «واشنطن بوست» فقد نشرت مقالا ارادت ان تثبت فيه بانه كان لبيل كلينتون علاقات وثيقة جدا مع «مربي الدواجن» وبانه لم يتخذ اي اجراء من اجل منعهم من مد حظائرهم الى الاراضي الزراعية، وكانت هناك ايضا حملات اعلامية اخرى وجهت اتهامات شخصية للمرشح الديمقراطي كلينتون الذي رد عليها بالقول: «في مواجهة جميع هذه الهجمات الشخصية تعرفت بالطريقة نفسها التي اتصرف بها في مثل هذه الحالات التي اجد نفسي فيها عرضة للهجوم حيث انني اتابع رسم معالم طريقي».

ما بعد عام ١٩٩٣

في التاسع من سبتمبر ١٩٩٣ اتصل اسحق رابين هاتفيا بالرئيس الاميركي بيل كلينتون ليخبره بأن اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية توصلتا الى اتفاق للسلام، وذلك بعد محادثات سرية طويلة جرت في اوسلو، كان كلينتون على علم بها قبل فترة وجيزة من استلامه لمهام منصبه الرئاسي. ويشير كلينتون الى ان المحادثات كادت ان تفشل مرة او مرتين.

حيث تدخل وزير الخارجية الاميركي وارن كريستوفر لاعادتها الى حيث ينبغي وكانت المحادثات قد بقيت طي الكتمان، مما سمح للمفاوضين بأن يناقشوا بصراحة المسائل الاكثر حساسية والتوصل الى اتفاق حول مجموعة من المباديء المقبولة من الطرفين.

ويحدد بيل كلينتون الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في تلك المفاوضات بأنه كان في جانب كبير منه المساعدة على حل المشكلات الاكثر اثارة للنزاع والمساهمة في اعداد اشكال تطبيق الاتفاق وسبل تأمين الاموال المطلوبة من اجل تطبيقه، ذلك انه كان يتوجب تأمين اكبر قدر ممكن من الامن لاسرائيل وانهاض الاقتصاد الفلسطيني واعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين ودفع تعويضات مالية لهم، ويؤكد بيل كلينتون انه كان قد تلقى اشارات مشجعة من عدد من الدول الاخرى بما فيها المملكة العربية السعودية حيث ان العاهل السعودي الملك فهد بن عبدالعزيز كان من المؤيدين باستمرار لعملية السلام.

مشكلتان

يقول كلينتون لقد كنا لا نزال بعيدين عن حل شامل، لكن اعلان المبادىء كان يشكل خطوة الى الامام وقد اعلن في العاشر من سبتمبر ان القادة الفلسطينيين والاسرائيليين سوف يوقعون اتفاقا في الحديقة الجنوبية للبيت الابيض في ١٣ من الشهر نفسه قبل ان يضيف ان (اعضاء منظمة التحرير الفلسطينية قد تخلوا عن العنف واعترفوا بوجود اسرائيل ولذلك ستستأنف الولايات المتحدة الحوار معهم).

ويشير كلينتون الى انه قبل ايام من توقيع الاتفاق سأله بعض الصحافيين عما اذا كان عرفات مرغوباً به في البيت الابيض، فاكتفى باجابته بأنه يتعين على الطرفين المعنيين مباشرة بتقرير من الذي سيقوم بتمثيلهما اثناء الاحتفال بالتوقيع.
ولكن حقيقة مشاعر كلينتون آنذاك عبر عنها بالقول: (لقد كنت ارغب جدا بمجيء عرفات ورابين وقد الححت عليهما للقيام بذلك اذ انه في حالة عدم مجيئهما فانه لن يكون في البلاد من يصدق انهما يريدان حقا العمل من اجل تطبيق المبادىء، واذا قدما فان مليار شخص في العالم سيرونهما على شاشة التلفزيون، وبالتالي سيغادران البيت الابيض وهما اكثر تصميما على العمل من اجل تحقيق السلام وعندما اخبرني عرفات بانه سيأتي طلبت من رابين مجدداً ان يأتي هو الآخر.

لقد قبل ذلك وحتى لو كان قبوله قد جعله ايضاً عصبي المزاج قليلا). ويشير كلينتون الى انه يمكن للقبول بقرار المجيء الى البيت الابيض بالنسبة لعرفات ورابين ان يبدو سهلاً اليوم بعد مرور كل هذا الوقت (ولكن كان ذلك آنذاك بمثابة رهان بالنسبة لرابين كما بالنسبة لعرفات، اذ ما كان لهما ان يكونا واثقين برد فعل مواطنيهما)، ذلك انه على الرغم من تأييد اغلبية السكان لهما فان المتطرفين في الحالتين كان يمكن ان يقوموا برد فعل عنيف حيال المصالحة حول المسائل الاساسية التي كان اعلان المبادىء يتضمنها.

ويرى كلينتون ان (رابين وعرفات برهنا كليهما على ذكاء وشجاعة بقبولهما المجيء وتبادل الحديث) اما توقيع الاتفاق فقد جرى من قبل وزير الخارجية الاسرائيلي شيمون بيريز ومحمود عباس وحيث كان الرجلان قد ساهما بفعالية في مفاوضات اوسلو وكان وارن كريستوفر وزير الخارجية الاميركي واندريه كوزيريف، وزير الخارجية الروسي الشاهدين على ذلك الاتفاق.

في صباح ١٣ سبتمبر كان يخيم حول البيت الابيض جو من التوتر والاستثارة، وكانت قد تمت دعوة اكثر من الفين وخمسمئة شخص بمناسبة ذلك الحدث الكبير الذي كان جورج ستيفانوبولوس ورام ايمانويل قد قاما بتنظيمه، وكان رام قد خدم لفترة في الجيش الاسرائيلي، وكان من بين الحضور الرئيس الاميركي الاسبق جيمي كارتر، وهو الذي كان قد قاد مفاوضات السلام في كامب ديفيد بين مصر واسرائيل وحضره ايضا الرئيس جورج بوش الذي كان قد نظم، مع ميخائيل جورباتشوف، محادثات السلام في مدريد عام ١٩٩١ بين اسرائيل والفلسطينيين والدول العربية.
ولم يستطع الرئيس جيرالد فورد الحضور الى واشنطن في ذلك اليوم على الرغم من انه في عداد المدعوين، وكذلك جميع وزراء الخارجية الاميركيين السابقين ومستشاري الامن القومي الذين كانوا قد عملوا من اجل السلام خلال العقدين المنصرمين، وتغيبت تشلسى ابنة كلينتون واطفال نائب الرئيس آل غور عن المدرسة ذلك الصباح كي لا تفوتهم المناسبة.

عشية يوم التوقيع على الاتفاق ذهب الرئيس كلينتون للنوم عند الساعة العاشرة مساء - وهو موعد مبكر بالنسبة له - كي يستيقظ في الثالثة فجراً ولم يستطع النوم بعدها فقرأ بعض الصفحات في الانجيل، ويتحدث بيل كلينتون عن حدثين صغيرين شهدتهما فترة صباح توقيع الاتفاق يقول: في الصباح الباكر كان علينا ان نواجه حدثين صغيرين، لقد اخبروني بأن ياسر عرفات سوف يأتي مرتدياً زيه المعتاد بالكوفية والرداء العسكري ذي اللون الزيتوني.

وربما انه يريد ايضاً ان يتقلد المسدس المألوف فقد اخبرته بأنه لا يمكنه ان يأتي مسلحا فقد جاء ليضع اساس السلام ويمكن للمسدس ان يوحي بالفكرة المعاكسة، ثم انه لا يعرض نفسه لاي خطر اذا لم يتقلده وقد قبل ان يأتي من دون سلاح وعندما لاحظ الفلسطينيون انه قد تمت تسميتهم في الاتفاق بصفة الوفد الفلسطيني وليس بتسمية منظمة التحرير الفلسطينية قالوا لا، فقبلت اسرائيل عندها الاعتراف بالتسمية المرجوة.

ثم طرح بعد ذلك السؤال عما اذا كان عرفات ورابين سيتصافحان؟ ويقول كلينتون: (كنت اعرف بأن عرفات يريد ذلك) وكان رابين كان قد قال قبل مجيئه الى واشنطن انه سوف يفعل ذلك (اذا اقتضت الضرورة ولكنني كنت متأكداً من انه لا يتمنى فعله) وعندما وصل الى البيت الابيض طرح الرئيس كلينتون المسألة (لم يرد ان يعد بأي شيء مشيرا الى جميع الشباب الاسرائيليين الذين دفنهم بسبب عرفات) فقال له كلينتون انه اذا كان ينوي فعلاً صنع السلام فانه ينبغي ان يصافح عرفات كي يبرهن على ذلك.

وحدد القول: (ان العالم اجمع سوف ينظر لكما وما يريد ان يراه هو تلك المصافحة) تنهد رابين وقال بصوت اجش (افترض ان المرء لا يقيم السلام مع اصدقائه) فأردف كلينتون (اذن ستصافحه؟) اجابه رابين مقاطعاً تقريباً (حسناً، حسناً، ولكن بدون تقبيل) ويشرح كلينتون بأن التقبيل على الوجنات هي من عادة عند العرب.

ويشير كلينتون الى انه كان يعرف ان (عرفات يحب كثيرا ان يسلط الاضواء عليه، وانه ربما قد يحاول تقبيل رابين بعد المصافحة) يقول: (لقد قررنا ان اصافح أنا كلاً منهما اولاً ثم اقوم بتقريب كل منهما من الآخر، كنت على اقتناع بأن عرفات اذا لم يقبلني فانه لن يحاول تقبيل رابين) كان النقاش يدور حول مسألة (التقبيل) تلك عندما اقترح احد مستشاري كلينتون وسيلة تضمن امكانية مصافحة عرفات وتجنب قبلته في الوقت نفسه.

ويصف كلينتون تلك الوسيلة، الطريقة كالتالي: (لقد بين لي المستشار كيف ينبغي العمل، وقمنا بالتدرب على ذلك لعبت انا دور عرفات واخذ هو دوري، وعندما صافحته واقتربت منه لتقبيله وضع يده اليسرى على ذراعي اليمين بمستوى المرفق وضغط بقوة مما اصابني فورا بالبرود) ثم تم تبادلنا الادوار كان الامر مثيرا للضحك، لكن الرئيس الاميركي يشير الى انه كان يدرك تماما مدى اهمية مسألة التقبيل بالنسبة لرابين.

دبلوماسية المصافحات

لم يكن الفلسطينيون والاسرائيليون يتبادلون الحديث علناً حتى تلك اللحظة، وقبل بداية الاحتفال خرج الجميع الى الحديقة كما كان متفقا وبقي كلينتون وعرفات ورابين وحدهم في الداخل، ويصف كلينتون ما جرى عندئذ بالقول: (قام عرفات بتحية رابين ومد له يده.. لكن رابين حافظ على يديه المتشابكتين وراء ظهره وقال: ليس هنا وانما في الخارج، اكتفى عرفات بابتسامة، وقام بإشارة برأسه ليدل على انه قد فهم، ثم قال رابين: هل تعرف كان ينبغي القيام بعمل شاق جدا كي تسير الامور فأجاب عرفات: اعرف ذلك وانا مستعد لان افعل ما سيكون مطلوبا وينبغي عمله).

لقد تم توقيع سلام الشجعان، وشد كلينتون على يد عرفات مع منعه في الوقت نفسه من تقبيله، ثم صافح رابين، وتراجع داعيا الرجلين للمصافحة ومد عرفات يده، فبدا التردد على رابين لكنه مد يده هو الآخر، وتصافحا. تنفس جمهور الحضور الصعداء يقول كلينتون: (احس العالم كله بالغبطة باستثناء بعض المحتجين في الشرق الاوسط والمتظاهرين امام البيت الابيض، ممن كانوا يزعمون بأننا نعرض امن اسرائيل للخطر).

شهد ذلك الاحتفال بعض الخطابات القصيرة من بيريز ومحمود عباس ووارن كريستوفر واندريه كوزيريف ثم رابين الذي القى خطابا يصفه الرئيس كلينتون بـ (الرائع) وركز فيه على قدر الاسرائيليين والفلسطينيين بالعيش معا فزمن السلام قد جاء ثم تحدث عرفات موجهاً كلامه بصورة خاصة للاسرائيليين والابتسامة تعلو وجهه، لكنه ابدى في الوقت نفسه تمسكه الثابت بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

وكان يرمي بذلك الى (طمأنة الذين كانت لاتزال الشكوك تستأثر بهم في البلاد (ويعلق كلينتون مشيرا في الوقت نفسه الى ان رابين كان منزعجاً اثناء القاء عرفات لخطابه، لقد ختم كلينتون الاحتفال بتحية أبناء اسحاق واسماعيل الذين هم جميعاً ابناء ابراهيم ثم الطلب منهما انجاز مهمتهم كصانعي سلام.

اجرى كلينتون محادثة سريعة مع عرفات بعد الاحتفال، ثم تناول طعام الغداء مع رابين وسأله اثناء الغداء عن السبب الذي دفعه لدعم مسيرة اوسلو فأجابه بأنه قد ادرك ان الاراضي التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ ليست ضرورية لها بل انها كانت مصدرا لعدم الامن ويقول كلينتون بأن رابين قد اعترف له بأن (الانتفاضة التي انطلقت قبل سنوات برهنت على ان احتلال منطقة يعيش اهلها حالة من الغضب لا يعزز امن اسرائيل وانما جعلها اكثر هشاشة وتعرضا للهجمات من الداخل).

وقدم كذلك حجة اخرى هي انه قد فهم بعد حرب الخليج ١٩٩١ واطلاق العراق لصواريخ (سكود) اصابت اسرائيل يعني ان تلك الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ لا تشكل حاجزاً امنياً ضد هجومات بالاسلحة الحديثة انطلاقاً من الخارج، ثم كانت هناك مسألة امكانية حصول سكان الاراضي المعنية لحق الانتخاب مثلما هو الامر بالنسبة لفلسطينيي الداخل لما قبل حرب ١٩٦٧.

واذا حصل الفلسطينيون على هذا الحق فهذا يعني ان اسرائيل لن تبقى بعد عقود قليلة دولة (عبرية) واذا لم يتم اعطاؤهم حق الانتخاب فان اسرائيل تفقد مصداقيتها كدولة ديمقراطية وتصبح دولة تمييز عنصري والنتيجة النهائية التي وصل اليها رابين في شروحاته هي انه ينبغي على اسرائيل ان تجلو عن تلك الاراضي مقابل حصولها على سلام حقيقي واقامة علاقات طبيعية مع جيرانها، بما في ذلك سوريا، ويشير كلينتون الى ان رابين كان يعتقد بأنه قد يمكنه الوصول الى اتفاق مع الرئيس السوري حافظ الاسد قبل او بعد الوصول الى اتفاق مع الفلسطينيين.

ويضيف كلينتون: ان المحادثات التي كنت قد اجريتها مع الاسد دفعتني الى التفكير بالطريقة نفسها. وفي اليوم التالي تم توقيع اتفاق بين الدبلوماسيين الاسرائيليين والاردنيين يقرّبهما اكثر من السلام النهائي، ثم جرى جمع عدة مئات من رجال الاعمال اليهود والعرب الاميركيين في وزارة الخارجية من اجل دفعهم لتوحيد جهودهم الاستثمارية في المناطق الفلسطينية حيث تتوفر الشروط الكافية لازدهار اقتصاد مستقر.

ويشير كلينتون الى (اعلان واشنطن) الذي وقعه في شهر يوليو التالي الملك حسين واسحق رابين والذي تم فيه الاعلام رسمياً عن نهاية حالة الحرب بين البلدين والشروع بمفاوضات سلام شامل. (لقد كان الطرفان يقومان بمحادثات سرية قبل فترة من الزمن) وقد بذل وارن كريستوفر جهوداً كبيرة من اجل امكانية الوصول الى اتفاق حسبما يقول كلينتون مشيراً في الوقت نفسه الى ان ذلك الاتفاق كان يشكل تناقضاً كبيراً مع الهجمات التي قام بها آنذاك حزب الله ضد مؤسسات يهودية في بوينس ايرس وبنما ولندن.

وبعد ان يشير كلينتون الى ان حزب الله (مسلّح من ايران ومدعوم من سوريا) من اجل القيام بعملياته ضد اسرائيل انطلاقاً من جنوب لبنان، يؤكد انه ما كان لاتفاق السلام ان يصل الى نهايته من دون اتفاق بين سوريا واسرائيل، حيث كانت نشاطات حزب الله تشكل عقبة جديدة امام السلام.

شارك بيل كلينتون خلال نوفمبر ١٩٩٨ بالكثير من النشاطات السياسية، وخاصة في المناطق القريبة من واشنطن في إطار الحملة الانتخابية للكونغرس ودعم المرشحين الديمقراطيين، لكن كما يقول كان لا يزال هناك الكثير مما ينبغي عمله وخاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط، هذا لا سيما وأن مادلين أولبرايت ودينيس روس كانا قد عملا خلال عدة شهور من اجل إعادة عربة مسيرة السلام إلى الطريق المطلوب.

وقد نجحت أولبرايت في عقد لقاء بين عرفات ونتانياهو بعد فترة انقطاع طويلة، حيث كانا يحضران اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة. ويرى كلينتون انه (لم يكن أي منهما مستعدا للقيام بخطوة إلى الأمام أو أن يبدو بأنه يعرض نفسه للشبهة من قبل ناخبيه لكنهما كانا قلقين، ذلك أن تدهور الوضع سينتهي من دون شك إلى أن تفلت السيطرة عليه من أيديهما خاصة إذا أطلقت حماس هجوما شديدا).

قام عرفات ونتانياهو بزيارة بيل كلينتون آنذاك في واشنطن فأعلن لهما عن مشروعه بـ «دعوتهما للمجيء إلى واشنطن مرة أخرى بعد شهر من اجل دفعهما إلى توقيع اتفاق بينهما وبانتظار ذلك قامت أولبرايت بزيارتهما في المنطقة. وتم اللقاء على الحدود بين قطاع غزة وإسرائيل، ثم وجه عرفات دعوة لتناول طعام الغداء في منزل للاستضافة كان يملكه جاعلاً بذلك من نتانياهو، المعروف بتشدده، أول رئيس وزراء إسرائيلي يدخل إلى قطاع غزة.
لقد تطلب التحضير للقاء قمة جديد عدة اشهر. وكان الخصمان يريدان من أميركا مساعدتهما في اتخاذ القرارات الصعبة، وكانا يعتقدان ان المظهر الاستعراضي للحدث سيساعد على قبول مواطنيهما بتلك القرارات ولكن شأن جميع القمم كانت هناك إمكانية لعدم توصل الأطراف المعنية إلى التفاهم.

ويحدد كلينتون قوله بهذا الشأن: كان مسؤولو الأمن الداخلي الاميركي يخشون فشل تلك القمة وما يمكن أن يترتب على ذلك الفشل من نتائج. كان عرفات ونتانياهو قد اتخذا علنياً مواقف متشددة جداً وكان نتانياهو قد اختار اريل شارون، ممثل الخط المتشدد في حزب الليكود، كوزير للخارجية والذي كان قد وصف اتفاق السلام الموقع عام ١٩٩٣ بأنه بمثابة انتحار وطني. وكان من المستحيل معرفة ما إذا كان نتانياهو قد منح تلك الحقيبة الوزارية لشارون من اجل أن يجعل اللوم عليه في حالة فشل القمة، أو من اجل أن يضمن تغطية لدى معسكر اليمين في حالة نجاح القمة.

ويؤكد كلينتون انه كان يرى باستمرار في اللقاء فكرة جيدة، وذلك لأنه ليس هناك ما يمكن خسرانه، ثم انه كان يعتقد دائماً انه من الأفضل دائماً مواجهة خطر الفشل عبر القيام بأي عمل مقبول مما هو عدم القيام بأي عمل خشية الفشل. وفي ١٥ نوفمبر ١٩٩٨ بدأت النقاشات في البيت الأبيض قبل أن تتوجه الوفود إلى مركز اللقاء في واي ريفر بميريلاند. وكان المكان كما يصفه كلينتون مريحاً ومناسباً جداً لمثل تلك القمة، إذ كان يمكن لأعضاء كل وفد أن يقيموا بجانب بعضهم البعض وبعيداً في الوقت نفسه عن الوفود الأخرى.

في واي ريفر

استمرت القمة أربعة أيام. وكانت البداية هي الاتفاق على القواعد المعتادة، والمتمثلة في عدم إلزام الطرفين بأي اتفاق أولي، طالما انه لم يتم التوصل إلى اتفاق نهائي. كما تم الاتفاق على أن تقوم الولايات المتحدة بتحرير الوثيقة النهائية. أشار كلينتون للطرفين بأنه سوف يكون حاضرا بقدر ما يسمح له وقته بذلك، لكنه أصر على العودة كل مساء بالهليكوبتر إلى البيت الأبيض، حيث يقوم في صباح اليوم التالي بتوقيع القوانين التي يجرى سنها، ويتابع المفاوضات مع الكونغرس حول الميزانية.

ومنذ اليوم الأول أوحى كلينتون لعرفات ونتانياهو بأن يفكرا بما يمكنهما فعله من اجل أن يسهل كل منهما للآخر مهمته مع المعارضة التي يواجهها. لقد فكر بذلك طيلة أيام أربعة لكنهما لم يتوصلا إلى بداية حل، ذلك أن نتانياهو أكد بأنه لا يمكن التفاهم حول جميع النقاط واقترح ما يلي (يمكن لإسرائيل أن تحقق الجلاء عن ١٣% من الضفة الغربية . ويلتزم الفلسطينيون بالمقابل بأن يتعاونوا أكثر على صعيد الأمن عبر اتباع برنامج تم وضعه بمساعدة مدير وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية جورج تينيت الذي كان يحظى بثقة الطرفين).

في مساء اليوم الأول من المفاوضات وجد بيل كلينتون نفسه بمفرده مع ارييل شارون للمرة الأولى. انه يصفه بـ (هذا الجنرال السابق البالغ من العمر ٧٣ سنة والذي كان قد شارك في إنشاء إسرائيل كما شارك في جميع الحروب التي تلت ذلك. انه لم يكن يحظى بأية شعبية في العالم العربي، وليس فقط بسبب عدائه لسياسة الأرض مقابل السلام، وإنما بسبب الدور الذي لعبه أثناء اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ والذي شهد مقتل عدد كبير من الفلسطينيين الذين لم يكونوا يمتلكون أي سلاح على يدي الميليشيات اللبنانية المتحالفة مع إسرائيل).

وخلال تبادل الحديث الثنائي الذي اكتفى كلينتون خلاله تقريباً بمجرد طرح الأسئلة والاستماع ومنهم من خلال ما قاله شارون بان هذا الأخير لم يكن لا مبالياً بالوضع السيء الذي كان يواجهه الفلسطينيون وأراد تقديم مساعدة اقتصادية لهم، لكنه لم يكن يعتقد أن الجلاء عن الضفة الغربية هو في الصالح الأمني لبلاده، ولم يكن يثق بعرفات في مجال مكافحة الإرهاب. وكان عرفات هو الشخص الوحيد الذي رفض شارون مصافحته بينما كان الأعضاء الآخرون في الوفد الإسرائيلي قد صافحوه. وخلال هذا اللقاء الذي استمر حتى الثالثة فجراً فهم كلينتون بشكل أفضل، كما يقول طريقة تفكير شارون.

وكان أكثر ما أثار دهشة كلينتون أثناء الحديث مع شارون هو إلحاح هذا الأخير على طلب العفو عن جوناثان بولارد العميل السابق الذي كان قد نقل معلومات حساسة لإسرائيل وتم الحكم عليه بالسجن لفترة طويلة من قبل القضاء الاميركي. ويرى كلينتون انه كان واضحا له تماماً مدى أهمية إطلاق سراحه بالنسبة لشارون وقبله لرابين من اجل أغراض تتعلق بالسياسة الداخلية. لا سيما وان الجمهور الإسرائيلي كان يرى بدون شك، بأنه لم يكن ينبغي أن يصدر الاميركيون عقوبة قاسية لأنه كان قد نقل معلومات حساسة لبلد حليف.

لقد تابع كلينتون المحادثات مع عرفات ونتانياهو والفريق المرافق لهما وخاصة وزير الدفاع الإسرائيلي اسحق مردخاي والمستشارين الرئيسيين لياسر عرفات، أبو علاء وأبو مازن اللذين أصبحا كليهما، فيما بعد رئيسين للحكومة الفلسطينية. وكذلك مع صائب عريقات ومحمد دحلان.

ويشير كلينتون في هذا السياق إلى الدور الأساسي الذي لعبه جمال هلال المترجم بوزارة الخارجية الاميركية، في المفاوضات ويؤكد القول إن أعضاء الوفدين كانوا يتحدثون اللغة الإنجليزية، لكن عرفات لم يكن يتحدث عن المسائل المطروحة إلا باللغة العربية. وكان جمال هلال هو الشخص الوحيد الحاضر أثناء محادثاتي مع عرفات. لقد كان يفهم الشرق الأوسط والدور الذي لعبه كل عضو في الوفد الفلسطيني أثناء النقاشات، وكان عرفات يحبه بشكل خاص. وقد أصبح بعد ذلك أحد المستشارين في فريقي.. وفي مناسبات مختلفة كانت علاقاته الشخصية مع عرفات ذات قيمة ثمينة.
ولقد حث كلينتون نتانياهو على أن يكون كريما مع عرفات وان يتخلى له عن أراض والمطار وممر آمن بين غزة والضفة الغربية ومرفأ في غزة، وهذا كله من اجل أن يمتلك قدراً من القوة يسمح له بالتصدي للإرهاب. أما بالنسبة لعرفات فقد طلب منه بالإضافة إلى تكثيف جهوده لصالح استتباب الأمن دعوة المجلس الوطني الفلسطيني لإعادة النظر في الميثاق الفلسطيني ويحذف الدعوة الى القضاء على إسرائيل.

وكان المجلس التنفيذي لمنظمة التحرير الفلسطينية قد حذف تلك الدعوة. لكن عرفات لم يكن يريد دعوة المجلس الوطني الفلسطيني لأنه لم يكن واثقاً من قدرته السيطرة على قراراته، كما يرى كلينتون ويعيد ذلك التمايز بين فلسطينيي الشتات وفلسطينيي الداخل لسياسة رئيسهم عرفات القائلة بضرورة القيام بمصالحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

حضر الملك حسين الذي كان المرض قد أنهكه جانباً من المفاوضات وقد خفف مجرد حضوره من حدة المواقف، وساعد عندما تحدث مع الطرفين لغة الحكمة والتعقل. وبعد أن بدا أن نتانياهو قد ينسحب من المفاوضات لأنه لم يتم التوصل إلى اتفاق حول مسألة الأمن اجتمع الوفدان الفلسطيني والإسرائيلي وحدهما لمدة ساعتين، جرى بعدها عرض خطة كان الوفدان قد توصلا إليها من أجل التصديق على تغيير الميثاق من قبل المجلس الوطني الفلسطيني.

وقد حدد كلينتون مضمون الخطة بالقول: (كان ينبغي عليّ الذهاب إلى غزة من أجل تقديم الاقتراح مع عرفات الذي سيطلب عندها من المجلس الموافقة عليه برفع الأيدي أو بالتصفيق أو بضرب القدمين على الأرض). لقد أشار ساندي برجر على

الرغم من موافقته على المشروع إلى أن ذلك يتضمن بعض المخاطر بالنسبة لكلينتون الذي يعلق على هذا بالقول: (هذا صحيح، لكنني كنت قد طلبت من الفلسطينيين ومن الإسرائيليين أن يأخذوا مخاطر أكبر، فقررت أن أفعل ما كانوا قد طلبوه مني).

كانت الأمور لا تزال في الطريق المسدود في اليوم الأخير للمفاوضات. إذ كان عرفات يطلب الإفراج عن ألف معتقل فلسطيني في السجون الإسرائيلية، وكان نتانياهو يصر على القول بأنه لا يستطيع أن يطلق سراح أعضاء حركة حماس أو أي شخص آخر (يداه ملوثتان بالدم) وبالتالي حدد الذين يمكن الإفراج عنهم بخمسمائة سجين. أدرك كلينتون كما يقول إن الأمور قد وصلت إلى نقطة القطيعة فطلب من الملك حسين المجيء للحديث مع الوفدين ويصف وصوله بالمثالي: (عندما دخل إلى الغرفة كانت هالته الملكية ونظرته الصافية وبلاغته العفوية بمثابة أمور زادها انهيار صحته عظمة. لقد قال بصوته العميق والرنان إن التاريخ سوف يحكم علينا جميعاً وبأن الخلافات التي لا تزال قائمة بين الطرفين كانت تافهة بالمقارنة مع الفوائد التي يجلبها السلام، الذي ينبغي توقيعه باسم أبنائهم. لقد كانت الدلالة الكامنة غير المصرح بها، واضحة أيضاً ومؤداها ما يلي: (ربما لم يبق لي سوى فترة قصيرة من حياتي وأنتم يعود إليكم عدم ترك السلام يموت).

من أجل بولارد

استمرت المفاوضات حثيثة حتى ساعة متأخرة من الليل وحوالي الساعة الثالثة فجراً طرح الرئيس كلينتون فكرة لحل مشكلة السجناء، واستمرت النقاشات من أجل الوصول لاتفاق عليها حتى حوالي الساعة السابعة صباحاً، لكن بقيت هناك عقبة إذ هدد نتانياهو بأن يخرب كل ما تم التوصل له، إذا لم يفرج الرئيس كلينتون عن الجاسوس الإسرائيلي بولارد، وأكد القول إن كلينتون نفسه كان قد وعده عشية الليلة الماضية، وكان ذلك هو السبب الذي حثه لتأييد قرارات أخرى. لكن ما قلته في الواقع هو انه إذا كان هذا هو ثمن السلام فإنه يغريني أن أدفعه، لكن يتوجب عليّ الرجوع إلى شعبنا.

وعلى الرغم من التعاطف الكبير الذي كان بولارد يحظى به في إسرائيل فإن (الأميركيين قد لا يكونون مستعدين للصفح عنه. لقد كان باع أسرارنا مقابل المال، وليس على خلفية أيديولوجية، بالإضافة إلى أنه لم يبد أبداً أي ندم)، كما يقول الرئيس كلينتون مع إشارته إلى أن عدداً من الشخصيات التي طلب رأيها بالموضوع أعلنت عن معارضتها لإطلاق سراح بولارد، بل إن مدير وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية، جورج تينيت، قال بأنه سيكون مرغماً على الاستقالة إذا تم الإفراج عن بولارد.

ويؤكد ويل كلينتون: (لم تكن لدي رغبة أن افعل ذلك وتصريح تينيت عزز قراري) وكان تينيت نفسه قد ساعد الطرفين من اجل تسوية بعض التفاصيل وألزم وكالة الاستخبارات المركزية مسئولية تطبيق الإجراءات التي يتم إقرارها.

وبعد أن يشير كلينتون إلى أن استقالة تينيت تعني احتمال انسحاب ياسر عرفات من المفاوضات وانه بحاجة إلى تينيت من اجل النضال ضد القاعدة يقول بأنه اتخذ قرار إخبار نتانياهو بأنه سوف يقوم جدياً بدراسة حالة بولارد وبأنه سيحاول الوصول إلى حلها مع تينيت وفريقه المكلف بالأمن الداخلي ثم إن الوصول إلى اتفاق حول الأمن مع الفلسطينيين سيقدم خدمات اكبر من الإفراج عن بولارد هذا ما حاول كلينتون أن يشرحه لنتانياهو.

في النهاية قبل نتانياهو بعد نقاش طويل مع كلينتون الوصول إلى اتفاق لكن بشرط تعديل قائمة السجناء الذين سيقوم بإطلاق سراحهم، بحيث تتضمن عدداً اكبر من سجناء الحق العام وعدداً اقل من السياسيين، وكان هذا يطرح مشكلة بالنسبة لعرفات الذي كان يريد إطلاق سراح أشخاص كان يعتبرهم بمثابة مقاتلين من اجل السلام.

أرسل كلينتون كلاً من دنيس روس [1] ومادلين أولبرايت للنقاش مع عرفات في مقر إقامته واستطاعا إقناعه بأن كلينتون لا يستطيع أن يفعل أفضل مما فعل، ثم ذهب كلينتون نفسه لشكره إذ أن ذلك التنازل في الدقيقة الأخيرة كان قد أنقذ تلك الليلة.

ما بعد ١٩٩٩

كان أيار ١٩٩٩ غنياً بالأحداث على الصعيد العالمي. فمجلس دوما الدولة الروسي كان على وشك عزل بوريس يلتسين. وفي السابع عشر من الشهر نفسه فاز أيهود باراك رئيس حزب العمل الإسرائيلي في الانتخابات لعضوية الكنيست، وهزم بنيامين نتانياهو. وباراك هو جنرال سابق، لكنه أنجز دراسات عليا بالاقتصاد في جامعة ستانفورد. وكان قد دخل معترك السياسة قبل سنوات فقط حيث كان عليه أن يبحر في المياه السياسية العكرة.

ويرى كلينتون أن سر فوزه في الانتخابات يعود إلى أن الإسرائيليين قد وجدوا فيه نموذج اسحق رابين، حيث إن الشعار السياسي المطروح هو (إمكانية تحقيق السلام في إطار الأمن). وكان باراك يعتمد على أغلبية مريحة للائتلاف الذي كان يمثل حكومته في الكنيست، وبالتالي كان يمكنه ان يدخل في مفاوضات السلام وهو يملك رصيداً لم يكن يمتلكه نتانياهو.

في اليوم التالي لفوز باراك في الانتخابات، قدم العاهل الأردني عبد الله لرؤية الرئيس كلينتون و(هو مليء بالأمل حول السلام وبالتصميم كي يكون جديراً بخلافة أبيه). ولم يخف الرئيس الاميركي دهشته بمدى دقة معرفة الملك بالمسائل السياسية ولأهمية النمو كعامل في السلام وفي المصالحة. وينتهي كلينتون إلى القول: (لقد أقنعني ذلك اللقاء بان الملك وزوجته الملكة رانيا سوف يمارسان تأثيراً ايجابياً في المنطقة خلال سنوات طويلة).

شرطان وفي مطلع ٢٠٠٠ افتتح بيل كلينتون في فرجينيا القريبة مفاوضات السلام بين إسرائيل وسوريا، وذلك بعد أن كان (باراك قد ألح كثيراً من اجل تنظيم ذلك اللقاء من قبل الرئيس الاميركي. وإذا كان باراك على عجل من اجل دفع عملية السلام مع عرفات إلى الامام، كما يشير كلينتون مضيفاً بانه (لم يكن يعرف ما اذا كان بالامكان الوصول الى تسوية خلافاتهما الخاصة بالقدس).

وكان باراك قد صرح قبل ذلك بانه (كان مستعداً لاعادة هضبة الجولان الى سوريا بشرطين. الشرط الاول هو بناء مركز انذار متقدم في الجولان، والشرط الثاني هو احتفاظه ببحيرة طبريا، التي تمثل ثلث الموارد المائية للدولة العبرية).

ولهذه البحيرة ميزات خاصة اذ تتم تغذيتها من ينابيع جوفية مالحة ولكن مياهها عذبة في السطح. وبما ان المياه العذبة هي أكثر خفة فانه من المناسب عدم استهلاك كميات كبيرة منها في السنة الواحدة. وذلك ان الطبقة السطحية العليا رقيقة جداً وبالتالي لن تستطيع في حالة الاستهلاك الكبير ان تحافظ على المياه المالحة في الاسفل.

وكان رابين قد (التزم قبل اغتياله بالانسحاب من الجولان والعودة الى حدود عام ١٩٦٧، وذلك شريطة الاستجابة لمتطلبات اسرائيل). ويعتقد كلينتون بانه كان يضع ذلك الالتزام في جيبه وذلك حتى يحين الوقت الذي يمكنه فيه ان يعرضه رسمياً على سوريا في اطار حل شامل. وبعد اغتيال رابين اعتمد شيمون بيريز ذلك الالتزام لحسابه.

وكان مثل ذلك الالتزام هو القاعدة التي جرت عليها جولة مفاوضات اولى بين سوريا واسرائيل عام ١٩٩٦ حيث كان بيريز هو الذي يقود الوفد الاسرائيلي آنذاك وقد أبدى عندها امنيته بأن يوقع كلينتون (معاهدة امنية) مع اسرائيل، ولقد تكرر الطلب نفسه من قبل بنيامين نتانياهو ثم من قبل ايهود باراك (وقد قلت لهم بإنني كنت مستعداً لفعل ذلك) حسبما يؤكد كلينتون.

---

[1] - ترقبوا قراءة في كتاب دنيس روس قريباً على الشبكة الذكية www.smart10.com

ويشير كلينتون الى ان المهاجرين الجدد وخاصة الروس منهم كانوا يعارضون بشدة التخلي عن الجولان، فهؤلاء المهاجرون كانوا قد قدموا من أحد أكبر بلدان مساحة الى أحد اصغرها وكان التخلي عن الجولان أو الضفة الغربية يعني التخلي عن أرض ثمينة جداً. بالاضافة الى هذا لم تكن سوريا تمثل أي تهديد بالنسبة لاسرائيل اذ ان (العلاقات بين البلدين لم تكن سلمية فعلاً ولكن لم تكن الحرب معلنة). ثم كان هناك اقتناع بأن اسرائيل سوف تنتصر بسهولة في حالة قيام هجوم. لم يكن باراك، حسب رؤية كلينتون، يشاطر مثل هذه الرؤية للعالم. وكان يريد اقامة السلام مع سوريا ومتأكداً من انه يمكن الوصول الى اتفاق. وكان يتمنى ان يقوم الرئيس كلينتون بتنظيم لقاء للتفاوض عندما تسنح الفرصة.

يقول كلينتون ما نصه: (لقد قمت بتحضير اللقاء خلال فترة تزيد عن ثلاثة أشهر مع وزير الخارجية السوري فاروق الشرع وبواسطة الهاتف مع الرئيس الأسد الذي كان، بادراكه ان صحته تتدهور، تمنى استعادة الجولان قبل موته. ولكن كان لابد من التعقل اذ كان يتمنى ان يخلفه ابنه بشار من أجل ان يسترجع ذات يوم جميع الاراضي التي كانت تعود لسوريا قبل حرب ١٩٦٧، ثم كان ينبغي ان لا تؤدي نصوص الاتفاق مع اسرائيل الى أن تفرط بلاده في القوات الذي قد يكون السوريون بحاجة اليها).

كانت الهشاشة المتزايدة لصحة حافظ الاسد والاحتشاء الدماغي الذي اصاب الشرع في الخريف قد حثا باراك على التحرك بسرعة، وبناء على طلبه وجه الرئيس كلينتون رسالة الى الرئيس الأسد أخبره فيها بأن ايهود باراك يبدو مستعداً للتفاوض، وكان ينبغي من اجل ذلك تسوية مسألة ترسيم الحدود وحل مشكلة السيطرة على المياه ومشكلة مركز الانذار المتقدم. وكان المفروض في حالة الوصول الى اتفاق ان تكون الولايات المتحدة مستعدة لاقامة علاقات ثنائية مع سوريا.

ولا ينسى الرئيس كلينتون ان يشير الى ان مثل ذلك القرار كان صعبا لان سوريا كانت قد دعمت (الارهابيين) ولذلك يتم التأكيد على انه (كان ينبغي بالطبع التزام حافظ الاسد بمحاربة الارهاب اذا اراد اقامة علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة. وكان مثل ذلك الأمر قابلاً للتفكير به فاذا استرجع الاسد الجولان فانه لن يعود ممكناً مساعدة حزب الله من اجل شن هجمات على اسرائيل). وكان باراك يريد أن يتوصل الى اتفاق سلام مع لبنان ايضاً، اذ كان قد التزم بسحب قواته منه قبل نهاية السنة.

كما ان التوصل الى مثل هذا الاتفاق من شأنه ان يحمي اسرائيل من هجمات حزب الله على طول الحدود، ومن دون ان يبدو انسحاب القوات الاسرائيلية وكأنه نتيجة لتلك الهجومات، لكن باراك كان يعرف ايضاً انه لن يكون ممكناً الوصول الى اتفاق مع لبنان دون موافقة سوريا ومشاركتها. اجاب الرئيس الاسد على الرسالة التي بعث بها اليه كلينتون بعد شهر وبدت لهجته فيها متباينة عن تصريحاته السابقة.

وهذا ما يعيده كلينتون الى كون ان الحالة الصحية للشرع وللأسد نفسه كانت قد اثارت نوعاً من القلق في سوريا، لكن عندما قامت مادلين اولبرايت ودينس روس بزيارة الى سوريا بعد اسابيع للقاء بالاسد والشرع، الذي كان قد استعاد صحته تماماً، كما يبدو، قال لهما الاسد بأنه كان يقوي استئناف المفاوضات وتوقيع اتفاق سلام لأنه يعتقد بمصداقية اقوال رابين. هذا ما يؤكده كلينتون ويشير الى ان الرئيس الاسد قبل ان يترك المفاوضات لفاروق الشرع، شريطة ان يكون باراك نفسه هو محاوره.

قبل باراك هذه الشروط بسرعة لأنه كان يريد البدء بأسرع وقت ممكن في المفاوضات. فشرح له كلينتون انه ينبغي الانتظار الى ما بعد عطلة اعياد الميلاد، واتفقا على الجدول الزمني بحيث يكون هناك نقاش اولي في واشنطن في منتصف ديسمبر، ثم يتم استئناف هذا النقاش في مطلع العام الجديد بمشاركة كلينتون نفسه ومتابعة المفاوضات حتى التوصل الى اتفاق. هنا يشير كلينتون الى ان المفاوضات قد بدأت بشكل سيء اذ ان فاروق الشرع ادلى بتصريحات علنية. وذات طبيعة عدوانية قليلاً.

لكنه اشار في الوقت نفسه في اللقاءات الخاصة الى امكانية استئناف المفاوضات انطلاقاً من النقطة التي توقفت فيها عام ١٩٩٦، اي عندما كان رابين قد التزم بالعودة الى حدود ١٩٦٧ في حالة تحقيق الشرطين الذين ارادهما. وقد ردّ باراك على ذلك بالقول بأنه لم يلتزم هو شخصياً بأي شيء من هذا القبيل، لكنه لا يريد في الوقت نفسه ان (يمحو التاريخ).

ويقول كلينتون ان الاثنين اتفقا على ان يتركا له اختيار النسق الذي سيتم فيه التطرق للمشكلات المطروحة من اعادة ترسيم للحدود ووسائل الامن وتقاسم المياه وعلاقات السلام. كان باراك يريد ان يفاوض من دون انقطاع الامر الذي كان يفترض ان يعمل السوريون حتى نهاية شهر رمضان في ٧ يناير وان ادى ذلك الى عدم احتفالهم بعيد الفطر، لقد وافق الشرع على ذلك، وعاد الطرفان الى بلديهما للتحضير لتلك الجولة من المفاوضات.

كان باراك مستعجلاً للتفاوض، لكنه فهم سريعاً انه كان عليه ان يحضر الاسرائيليين اولاً قبل ان يتمكن من التخلي عن الجولان، وكان ينبغي عليه الحصول على ما يعوّض تخليه، مثل استئناف مفاوضات السلام مع لبنان بالتعاون مع سوريا، والتصريح العلني من قبل دولة عربية واحدة على الاقل عن تحسن في العلاقات مع اسرائيل والحصول على ضمانات عسكرية من قبل الولايات المتحدة واقامة منطقة حرّة في هضبة الجولان.

لقد قبل كلينتون مجمل هذه المطالب بل انه ذهب ابعد من ذلك اذ اتصل هاتفياً بالرئيس الاسد من اجل ان يطلب منه استئناف المفاوضات حول السلام في لبنان في الوقت الذي تتم فيه المفاوضات مع السوريين، بل وانه قد طلب منه ايضاً المساعدة في البحث عن جثث الجنود الاسرائيليين الثلاثة الذين كانوا قد فقدوا اثناء الحرب في لبنان قبل حوالي عشرين سنة. وافق الرئيس الاسد حالاً، حسبما يؤكد كلينتون، على هذا المطلب الثاني وتمّ ارسال فريق من الاطباء الشرعيين، الاميركيين، الى سوريا، لكن لم يتم العثور على الجثث، حيث كان يعتقد الاسرائيليون انها موجودة.

اما بالنسبة لمطلب استئناف المفاوضات حول السلام في لبنان في وقت التفاوض مع سوريا فقد اشار الاسد الى انه يمكن ان يتم الشروع بتحقيق مثل هذا المطلب عندما يتم تحقيق تقدم ملموس مع الوفد السوري.

في شيبردتاون تم الاتفاق على ان تتم المفاوضات في شيبردتاون التي تبعد حوالي ١٠٠ كيلومتر عن واشنطن، اذ طالب باراك بأن يكون موقع اللقاء معزولاً، حتى لا تتم تسريبات، ولم يكن السوريون يريدون كامب ديفيد او واي ريفر اللذين ارتبط اسماهما بمفاوضات حول الشرق الاوسط. ومع بداية المفاوضات بدا انه يمكن للطرفين الوصول الى تفاهم، لقد طالبت سوريا بسيادتها على الجولان، لكنها قبلت ان تترك للاسرائيليين هامشاً عرضه عشرة امتار حول بحيرة طبريا.

وكانت اسرائيل تطلب هامشاً اكثر اتساعاً، وطالبت سوريا ايضاً بانسحاب القوات الاسرائيلية خلال الثمانية عشر شهراً، بينما طالب باراك بثلاث سنوات لفعل ذلك. وكانت اسرائيل تريد ان تحتل هي نفسها مركز الانذار المتقدم، بينما كانت سوريا تريد ان تقوم الامم المتحدة بإدارته، وربما الولايات المتحدة، وكانت اسرائيل تريد ضمانات حول كمية ونوعية المياه الواردة الى البحيرة من الجولان، وقد وافقت سوريا على هذا الطلب، شريطة الحصول على الضمانات نفسها بشأن المياه الآتية اليها من تركيا، وكانت اسرائيل تريد اقامة علاقات دبلوماسية كاملة منذ عمليات الانسحاب الأولى لقواتها بينما كان؟؟ سوريا تتمنى ان تقيم علاقات جزئية قبل الانسحاب الاسرائيلي الكامل.

وما يؤكده كلينتون هو ان السوريين قد وصلوا بنفسية ايجابية وانهم كانوا راغبين بالوصول الى اتفاق. اما باراك فقد كان اكثر تردداً في حين انه كان هو الذي افتتح المفاوضات لقد قرر ان يجري التفاوض ببطء خلال عدة ايام كي يقنع الشعب الاسرائيلي بأنه لا يفاوض بـ (خفة)، وكان يعوّل على العلاقات الجيدة التي يقيمها كلينتون مع الشرع والاسد من اجل جعل السوريين يصبرون الوقت الضروري.

(لقد خاب املي، هذا اقل ما يمكنني قوله)، هذا ما يعلق عنه كلينتون حرفياً على اساس انه لو كان باراك قد تعامل سابقاً مع السوريين او انه اخطر الاميركيين في وقت مبكر قليلاً فإنه كان امكن التحكم بالوضع. لقد كان عليه ان يأخذ باعتباره، على اساس انه منتخب ديمقراطياً، الرأي العام واستطلاعات الرأي غير المشجعة له، لكن الاسد كانت لديه ايضاً مشكلاته على صعيد السياسة الداخلية وثقته بكلينتون وبما قاله باراك هي التي جعلته يتجاوز نفوره من أي اخذ وعطاء مع اسرائيل.

ويبرر كلينتون ما جرى بالقول ان باراك كان لم يدخل معترك السياسة الا منذ فترة قليلة، وبأنه لم يحظ بالاستشارات الجيدة.

هذا وينبغي ان لا تؤثر استطلاعات الرأي على السياسة الخارجية والناخبين يطالبون مرشحهم بأن يحقق انتصارات والنتائج هي وحدها التي يتم اخذها بالحسبان، هذه هي الدروس التي يستقيها كلينتون عبر تأكيده ان اغلبية القرارات التي اتخذها كانت لا تحظى بشعبية في البداية.

ويرى على هذا الاساس بأن التوصل الى اتفاق سلام مع سوريا كان سيعطي لباراك مكانة سياسية مرموقة في اسرائيل وفي العالم وسيوفر بعض التسهيلات في المفاوضات مع الفلسطينيين في حالة وجودها. وفي حالة الفشل سيتم سريعاً نسيان استطلاعات الرأي. لكن كلينتون يعترف بأنه لم ينجح في جعل باراك يغير رأيه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها. بل وطلب منه ان يبذل جهده كي يجعل الشرع ينتظر.

حاولت مادلين اولبرايت ودنيس روس تصور طريقة يمكن من خلالها توضيح موقف باراك من الالتزامات التي كان قد قطعها رابين على نفسه. وتحادثت اولبرايت في لقاء خاص مع بثينة شعبان، السيدة الوحيدة في الوفد السوري، والتي يصفها كلينتون بالكلمات التالية: (هذه المرأة المدهشة، والتي تعبر عن افكارها بأكبر قدر من الوضوح كانت قد عملت دائماً كمترجمة لحافظ الاسد اثناء لقاءاتنا. كانت تعمل لخدمته منذ سنوات، واعتقد انها كانت موجودة في شيبردتاون لتقدم للرئيس رواية غير ملطفة للنقاشات).

في اليوم الخامس للمفاوضات تم تقديم مخطط اولي لاتفاق سلام بعيداً عن الخلافات التي لم يكن قد تم حلها بعد. وافق عليه السوريون منذ عشية اليوم الماضي وتم الشروع بمفاوضات حول مشكلات الحدود والأمن.

وهنا ايضاً ابدى السوريون مرونة حول الموضوعين بقبولهم مثلاً توسيع الشريط الارضي المحيط ببحيرة طبرية الى ٥٠ متراً شريطة ان تقبل اسرائيل حدود ٤ يونيو كقاعدة للنقاش. ويؤكد كلينتون ان هذا المطلب كان مبرراً اذ ان مساحة البحيرة قد تقلصت خلال الثلاثين سنة الاخيرة. واذا كان قد اعتبر ذلك التقدم بمثابة امر جيد بالاحرى فإنه فوجيء بأن باراك لم يخول احداً بقبول حدود ٤ يونيو مهما كانت الاقتراحات السورية.

وفي صباح يوم الاحد التالي، واثناء حفل غداء على شرف ايهود باراك وزوجته نافا في مزرعة مادلين اولبرايت، لخصت هذه الاخيرة برفقة دينس روس الوضع بالقول ان سوريا قد اظهرت موقفاً تصالحياً وقبلت مطالب وقدمت اقتراحات بينما الاسرائيليون لم يقوموا من طرفهم بأية خطوة الى الامام. فماذا ينبغي اكثر من ذلك؟ لقد اجاب باراك بأنه كان يريد استئناف المفاوضات مع لبنان، واذا لم يحصل ذلك فإنه سوف يعود الى اسرائيل لمدة اسبوع.

لم يكن الشرع يرى الامور من المنظور نفسه واعتبر ان لقاء شيبردتاون قد فشل وان باراك لم يكن صادقاً ثم ينبغي عليه ان ينقل هذا كله للرئيس الاسد. ويؤكد كلينتون انه حاول طيلة العشاء الاخير ان يدفع باراك للادلاء بتصريح ايجابي يمكن للشرع نقله الى دمشق، ولكن عبثاً.

وطلب باراك من كلينتون على انفراد ان يتصل هاتفياً بالرئيس الاسد عند نهاية المحادثات من اجل ان يقول له ان باراك لن يقبل حدود ٤ يونيو إلا بعد استئناف المفاوضات مع لبنان، لقد عاد الشرع الى دمشق اذن، وليس بيده شيء بينما كان قد تم وعده بمفاوضات حاسمة الى درجة ان السوريين كانوا قد قبلوا العمل حتى نهاية شهر رمضان وعدم الاحتفال بعيد الفطر.

صدمة التسريب

مما استجد وكأنه يرمي الى زيادة خطورة الوضع، واقع ان النسخة المؤقتة الاخيرة للاتفاق قد تم تسريبها للصحافة الاسرائيلية حيث اطلع الجميع على التنازلات التي قبلت بها سوريا من دون اي مقابل. وكان الشرع موضع نقد شديد في بلاده. ولا يتردد كلينتون في القول ان ذلك النص كان مزعجاً فعلاً بالصيغة التي كان عليها، بالنسبة للشرع، وبالنسبة للاسد ف(حتى الحكومات التسلطية ينبغي عليها ايضاً ان تراعي الرأي العام لديها وكذلك تراعي بعض مجموعات المصالح).

ويقول كلينتون انه عندما اتصل بالرئيس الاسد من اجل ان يعرض عليه اقتراح باراك بأنه يلتزم بمبدأ قبول حدود ٤ يونيو شريطة استئناف المفاوضات مع لبنان استمع له ولم يقل شيئاً وبعد عدة ايام اتصل الشرع بمادلين اولبرايت كي يعلن عن رفض عرض باراك، فالسوريون لن يستأنفوا المحادثات حول لبنان قبل الحصول على اعادة ترسيم الحدود. ان سياسة اليد الممدودة لم تنجح في شيبردتاون ولا يريدون ان يرتكبوا الخطأ نفسه مرتين.

بدا الوضع مسدوداً بشكل مؤقت، لكن الرئيس كلينتون حاول اعادة تلصيق القطع على حد تعبيره، مشيراً الى ان باراك كان يبدو انه يريد الوصول حقيقة الى السلام مع سوريا ولكن الاسرائيليين لم يكونوا بالفعل معدين للقيام بالمصالحات التي يتطلبها اي اتفاق سلام، وكانت لسوريا مصلحة في الوصول الى مثل هذا السلام وبأسرع وقت ممكن، فصحة الرئيس الاسد كانت تتدهور، وكان عليه ان يعد لمن سيخلفه في السلطة.

وبعد حوالي شهرين قام الرئيس كلينتون بجولة قادته الى باكستان وعدة بلدان اخرى من بينها السعودية وسلطنة عمان قصد في طريق العودة مدينة جنيف حيث كان سيلتقي بالرئيس حافظ الاسد. وكان فريق الادارة الاميركية قد جهد كي يقنع باراك بتحضير تصريح ايجابي حيال موضوع سوريا كي يستطيع الرئيس كلينتون ان يستخدمه علناً. مع معرفته بأن مثل هذا العرض لن يكون نهائياً ومع معرفة السوريين ايضاً لذلك. ولكن اذا برهنت اسرائيل على المرونة نفسها التي كان السوريون قد ابدوها في شيبردتاون فإنه كان ممكناً تأمل كل شيء. ولكن، للأسف لم تجر الامور بهذا القدر من البساطة حسبما يتحسر كلينتون.

في جنيف التقى كلينتون بالاسد الذي بدا مرحبا بحرارة عندما قدم له ربطة عنق زرقاء مزينة بصورة اسود، اي ما يدل على اسم الاسد تقريباً باللغة العربية. لم يكن عدد الحضور كبيراً. كان الاسد برفقة الشرع وبثينة شعبان. ورافقت مادلين اولبرايت ودينس روس كلينتون بينما قام بوب مال من مجلس الامن القومي بعمل طباعة المحضر. وبعد تبادل بعض عبارات الترحيب طلب كلينتون من روس ان يفرش الخرائط التي كان الرئيس الاميركي قد درسها بعناية من اجل الاجتماع.

وبالقياس الى ما تم عرضه في شيبردتاون اكتفى باراك هذا المرة بالاحتفاظ بمنطقة عرضها ٤٠٠ متر حول البحيرة، وطالب بعدد اقل من العاملين في مركز الانذار وقبل القيام بسحب قواته بشكل اسرع، وكان رد فعل الاسد على ما سمعه وكما يرويه حرفياً كلينتون: (لم يشأ الاسد ان أنهي العرض الذي اقدمه، وبدأ بالتململ، ثم صرح مذكراً بالجهود التي تم بذلها في شيبردتاون بأنه لن يتخلى عن شبر من الارض، وانه يريد ان يجلس على شاطيء البحيرة ويبلل قدميه بمياهها).

حاول الاميركيون؟ ان يعيدوا السوريين الى (ناصية التعقل) خلال ساعتين كاملتين. ولكن عبثاً اذا كان موقف الاسرائيليين في شيبردتاون ونشر الصحافة الاسرائيلية لوثيقة عمل ليست في صالح سوريا، كان كافياً للقضاء على ثقة الاسد الهشة.

بالاضافة الى ان صحة الاسد كانت قد تدهورت بوضوح، ويرى كلينتون بأن عرض باراك كان مشرفاً، وانه كان من شبه المؤكد التوصل الى اتفاق لو انه كان قد قدمه في شيبردتاون، لكن الاسد، كان يعطي الاولوية في لقاء جنيف لموضوع نقل السلطة، الذي كان يبدو له مهدداً بمنظور القيام بمحادثات جديدة.

وفي محصلة المفاوضات العديدة حول اتفاقية سلام بين سوريا واسرائيل يقول كلينتون بأنه شهد بمدة تقل عن اربع سنوات فشل المفاوضات ثلاث مرات. الامر الذي يعيده الى (الارهاب في اسرائيل وهزيمة بيريز عام ١٩٩٦) و(رفض ما عرضته دمشق في شيبردتاون) وأخيراً (تسلط فكرة الموت على الرئيس الاسد).

كان لقاء جنيف هو الاخير بين كلينتون والاسد فبعد عشرة ايام من ذلك اللقاء وعندما كان الرئيس كلينتون يوزع شهادات التخرج في معهد كارلتون في مينوسوتا تقدم اليه احد مساعديه، ودس بيده ورقة اخبره فيها بأن حافظ الاسد قد مات في دمشق. وهذا ما يعلق عليه كلينتون اليوم بالقول: (بالتأكيد كان بيننا الكثير من الخلافات، لكنه برهن دائماً على صراحته، ثم ان تصريحاته لصالح السلام كانت تبدو مخلصة بالنسبة لي).

كامب ديفيد

بعد فوز ايهود باراك على نتانياهو في الانتخابات الاسرائيلية، دعاه كلينتون للحضور برفقة زوجته لقضاء ليلة معه برفقة هيلاري في منتجع كامب ديفيد. خرج كلينتون يومها بالاقتناع بأن باراك يريد السلام فعلاً، وذلك على قاعدة اعتقاده بأن نجاحه الباهر في الانتخابات يمنحه سلطة تسمح له بذلك، ثم انه أراد ان يشهد كامب ديفيد حدثاً كبيراً، بعد ان رافقه كلينتون لزيارة المبنى الذي شهد أغلبية المفاوضات بين أنور السادات ومناحيم بيغن عام ١٩٧٨ وبرعاية الرئيس كارتر.

وفي ١١ يوليو ٢٠٠٠ افتتح كلينتون قمة كامب ديفيد برفقة باراك وعرفات بقصد تذليل العقبات الأخيرة في طريق السلام، او على الاقل تقليص هوة الخلافات للوصول الى اتفاق قبل نهاية رئاسة كلينتون الذي اكد ان تلك كانت هي (رغبة الثلاثة). ألح باراك بطلب عقد القمة، لانه لم يكن راضيا عن طريقة التفاوض التجزيئية في المرات السابقة (١٩٩٣ ومفاوضات واي ريفر) وكان يريد الوصول الى اتفاق قبل شهر سبتمبر اي قبل الموعد الذي هدد عرفات بأنه سيعلن فيه من طرف واحد قيام الدولة الفلسطينية. وكان يعتقد ان الاسرائيليين سيقبلون اتفاقاً يحقق لهم الامن وحماية المواقع الدينية والثقافية بالقدس والالغاء النهائي والقطعي لحق العودة للفلسطينيين، وأخيراً الاعلان رسمياً عن نهاية حالة الحرب.

بالمقابل لم يكن عرفات يريد القدوم الى كامب ديفيد، او على الاقل ليس مباشرة، وذلك على خلفية احساسه باستبعاده عندما عالج الاسرائيليون الملف السوري، ثم كان قد اغضبه ان باراك لم يفِ بالتزاماته بالتخلي عن مساحة اكبر من أراضي الضفة الغربية وعن عدد من القرى الفلسطينية القريبة من القدس.

واعتبر عرفات ان باراك وضعه في موقف ضعيف عندما اعطى الاوامر من طرف واحد لانسحاب قواته من لبنان، وعندما اقترح التخلي عن الجولان، وقد طالب عرفات بمهلة اسبوعين لصياغة مقترحاته التي تضمنت الحصول على الضفة الغربية كلها تقريبا والسيادة على الحرم وعلى القدس الشرقية باستثناء الاحياء اليهودية وايجاد حل لمشكلات اللاجئين لا يتضمن التخلي عن حق العودة.

كان كل من عرفات وباراك يعتقدان بأن موقفه هو الاكثر وضوحا من موقف الخصم الامر الذي دعا كلينتون للاعتقاد بأن امكانية النجاح محدودة لكنه قام مع ذلك بتنظيم القمة لتجنب الانهيار الكامل لمسيرة السلام، حاول كلينتون في اليوم الاول اقناع عرفات بنسيان صدمات الماضي والتركيز على المستقبل وتشاور مع باراك حول المسائل الاكثر دقة، مثل الاراضي والاستيطان واللاجئين والامن والقدس.

باراك يعمد للتسويف

لقد سوف باراك في البداية، واراد اطالة القمة لعدة ايام، ولم يكن عرفات قد جاء ومعه قائمة بالنقاط الملحة للنقاش، وقد اعاد كلينتون هذا الى ان تلك هي المرة الاولى التي يخوض فيها عرفات مثل هذه المفاوضات، اذ كان يكتفي سابقا بانتظار افضل عرض اسرائيلي حول الموضوعات الاساسية، لكن هذه المرة، كان ينبغي على عرفات اذا اراد التوصل الى نتيجة ان يقوم بدوره بتقديم تنازلات، مع انه لا يحصل على جميع الاراضي المحتلة او على الحق الدائم بالعودة الى بلاد انكمشت مساحتها بشكل خطير، كذلك كان عليه ان يقبل فكرة ان اسرائيل كانت تخشى ان تكتشف اعداء لها شرق نهر الاردن، وان هذا كان احد هواجسها الدائمة.

كانت المهمة التي وضعها كلينتون في اليومين الاولين للقمة هي العمل بشكل يفكر فيه باراك وعرفات انطلاقا من الذهنية نفسها وكانت مادلين اولبرايت ودنيس روس وجمال هلال مترجم وزارة الخارجية ـ الذي جعله كلينتون مستشارا له ـ وبقية الفريق الاميركي قد بدأوا العمل مع نظرائهم في الوفدين الفلسطيني والاسرائيلي، وكان اعضاء الوفود كلهم كما يتم وصفهم يتحلون بمزايا جيدة، فهم (وطنيون واذكياء ومجدون بالعمل وكان يبدو ان الجميع يرغبون مخلصين بالسلام.

وكان اغلبيتهم قد عرفوا بعضهم منذ سنوات مما سهل التفاهم والعمل كما سهل ذلك ايضا الجو غير الرسمي والأليف الذي تم ايجاده، حيث كان الرئيس كلينتون قد دعا بالاضافة الى الفريق المكلف في ادارته بالشرق الاوسط عددا من الاشخاص العاملين في البيت الابيض من اجل تسهيل اقامة الوفدين الفلسطيني والاسرائيلي، كما ان تشلسي ابنة كلينتون، بقيت معه حتى النهاية كي (تثرثر) مع المدعوين وتساعده على تحمل ساعات التوتر الطويلة.

كانت وجبات العشاء تتم في جناح لوريل، حيث كانت توجد قاعة طعام وقاعة استقبال وقاعة مؤتمرات والمكتب الخاص لبيل كلينتون اما وجبات الافطار والغداء فقد كانت تتم من دون اي نظام محدد، وكثيرا ما شوهد اسرائيليون وفلسطينيون ينتهزون المناسبة من اجل الحديث في مجموعات صغيرة، ويتبادلون افكار العمل، بل ويروون احياناً قصصهم الشخصية او بعض الدعابات الطريفة، كان ابو مازن وابو علاء اقدم مستشارين لدى عرفات.

وكان الاسرائيليون يستهدفون ابو علاء بدعابات عديدة، من بينها ان والده بقي شاباً اذ ان له وهو في الثالثة والستين من العمر آخ عمره ثماني سنوات فقط، اي اصغر من احفاد ابو علاء نفسه، ويشير كلينتون هنا الى ان ايلي روبنشتاين المستشار القانوني لحكومة باراك، كان يعرف طرائف اكثر منه، وانه كان يرويها بشكل افضل.

لكن اذا كان التيار قد (مر) بين الوفدين الفلسطيني والاسرائيلي فإن الامر لم يكن نفسه بين عرفات وباراك. لقد حرص كلينتون على ان يكون مقر اقامتيهما بالقرب من مقر اقامته حيث كان يتحادث طويلاً مع كل منهما، لكنهما لم يكونا يتبادلان الحديث ابداً، كان عرفات (يجتر) ما تعرض له من اذلال، ولم يكن باراك يريد ان يلتقي على انفراد مع عرفات، خشية ان يقال كالمعتاد بأن باراك يقدم تنازلات وعرفات لا يجيب بشيء.

ويقول كلينتون انه فهم باراك انذاك بشكل افضل ويصفه بأنه (ذهن وقاد وشجاع) ومستعد لتقديم قدر من التنازلات اكثر مما قدمه رابين حول القدس والاراضي المحتلة، لكن كان يصعب عليه ان يستمع الى اولئك الذين لا يشاطرونه الرأي، ان طريقته في التصرف تختلف بوضوح عن تلك السائدة في العالم العربي كما عرفته، ولا يتردد باراك في ان يجعل جميع الآخرين ينتظرون وعندما يكون هو مستعدا يتقدم بعرض ينبغي قبوله على الفور، لكن مستشاريه كانوا يتبعون من جهتهم طرقاً اكثر تقليدية اذ يتعاملون بلطف وكياسة من اجل كسب ثقة كل طرف للآخر وعبر محادثات ومساومات طويلة.

ويرى كلينتون ان احدى العقبات التي كانت لا تسهل عمل فريقه تكمن في (المواجهة بين ثقافتين). وبعد تقديم عدة استراتيجيات للخروج من الطريق المسدود أمكن تحقيق بعض النجاح الصغير، المتمثل في تقسيم الوفدين الى مجموعات عمل صغيرة تقع على كل منها مهمة البحث في نقطة واحدة من المفاوضات. لكن للأسف لوحظ ان كل معسكر حدد لهذه المجموعات خطاً أحمر لا يحق لها تجاوزه.

وفي اليوم السادس للمفاوضات، ذهب شلومو بن عامي وجيلدشير، بموافقة باراك، الى ابعد من المواقف السابقة لاسرائيل على امل ان يكون هناك رد فعل من قبل صائب عريقات ومحمد دحلان العضوين في فريق عرفات، واللذين كانا، حسب اعتقاد الجميع، يريدان الوصول الى اتفاق. لكن الفلسطينيين لم يقترحوا مقابل هذه التنازلات الحدودية. ذهب عندها كلينتون للقاء عرفات، وكان مصحوباً بهلال كمترجم وبمال لكتابة المحظر.

دارت المقابلة في جو مشحون، وقال كلينتون لعرفات انه مستعد لإنهاء المحادثات مع الاعلان ان عرفات قد رفض التفاوض الا اذا اعطاه ما يمكن ان يرضي باراك الذي كان هو الآخر متوتراً لأن بن عامي وشير كانا قد ذهبا الى ابعد ما يمكن من التنازلات من دون الحصول على اي شيء بالمقابل.

وبعد لحظة، سلم عرفات رسالة الى كلينتون بدا فيها وكأنه يقول إنه في حالة حصوله على ما يرضيه حول القدس فسيترك لكلينتون تحديد المساحة التي ستكون مخصصة للمستوطنين الإسرائيليين. قام الرئيس الأميركي بتسليم الرسالة لباراك، وتحادث معه طويلاً، حيث انتهى الطرف الإسرائيلي إلى قبول ان تلك الوثيقة كانت بمثابة نقطة انطلاق.

حصيلة الأيام السبعة

في ١٧ تموز ٢٠٠٠، أي في اليوم السابع للمفاوضات، كاد باراك يفقد حياته حيث لم يستطع التنفس خلال اربعة ثوان بسبب ابتلاعه لحبة فول سوداني بشكل مغلوط إذ كان يأكل ويعمل في الوقت نفسه. لكنه عاد مباشرة الى العمل وكأن شيئاً لم يكن، بعد إخراج تلك الحبة من مجرى التنفس. أما محصلة الأيام السبعة من العمل فيلخصها كلينتون بالجملة التالية: (بصراحة لم يتحقق أي شيء واقعي) بالنسبة لنا منذ أسبوع في الوقت الذي كان فيه باراك يشتغل ويشغل فريقه في النهار وفي الليل.

وكما هو الأمر في جميع العمليات من هذا النوع كان هناك من يعملون وهناك من ينتظرون. وكان لابد من انتظار الى ما بعد منتصف تلك الليلة كي يأتي باراك لمقابلة كلينتون مصحوباً باقتراحات، لكنها كانت أقل اهمية من تلك التي كان عرضها بن عامي وشير. وعبر باراك عن رغبته في تقديم هذه الاقتراحات على انها عروض اميركية. لكن كلينتون رأى انه لا يمكنه ان يستجيب لطلبه، وقد قال له ذلك صراحة.

لقد استمر نقاشه مع باراك حتى الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل وعاد باراك لاستئناف الحديث عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة، وانتهى الأمر بباراك الى ان اعطى كلينتون تفويضاً (على بياض) لوضع خطة اتفاق حول القدس لكن ينبغي ان يكون هذا يناسبه الى جانب التصديق على الاتفاقات الأولية التي كان بن عامي وشير قد توصلا لها مع نظرائهما الفلسطينيين. هكذا لم تكن تلك الليلة البيضاء ـ بلا نوم ـ دون فائدة، كما توصل كلينتون في تحليله. في صباح اليوم الثامن للمفاوضات استيقظ كلينتون وهو يعتريه احساس بالقلق الممزوج بالأمل.

القلق لأنه كان عليه الذهاب الى أوكياناوا باليابان للمشاركة في قمة الدول الثماني الصناعية. أما الأمل فقد كان مبعثه (شجاعة) باراك و(كفاءته) في اختيار اللحظة الأفضل. لقد أجل كلينتون سفره الى اليابان ليوم واحد، فذهب لرؤية عرفات الذي كان الاقتراح الجديد يضمن له عدة مكتسبات تتمثل في (٩١% من الضفة الغربية وشريط رمزي من الأرض قريب من غزة والضفة الغربية. وعاصمة في القدس الشرقية، والسيادة على الاحياء الاسلامية والمسيحية في المدينة القديمة.

وعلى ضواحي القدس الشرقية، والتنظيم والإدارة والمحافظة على الأمن في بقية الجزء الشرقي من المدينة. والحيازة ـ من دون سيادة ـ على الحرم الشريف. هذا العرض، كما يقدمه كلينتون لم يقبله عرفات لأنه لم يكن يريد عرضاً لا يمنحه السيادة على القدس الشرقية كلها، بما في ذلك الحرم الشريف الذي يشير الى انه طلب من عرفات التفكير.

كان عرفات يتذمر من العرض، وكان باراك شديد الغضب، فما كان من الرئيس كلينتون إلا أن اتصل بالعديد من القادة العرب كي يطلب دعمهم، لكنهم فضلوا جميعهم تقريباً الصمت خشية اغاظة عرفات. حاول كلينتون في اليوم التاسع ايضاً اقناع عرفات لكن عبثاً على الرغم من أن الاسرائيليين قد ذهبوا أبعد منه وحتى لم يكن يريد ان ان يعتبر عرضهم بمثابة قاعدة محتملة للنقاش بالنسبة للمستقبل. اتصل كلينتون من جديد هاتفياً بعدة قادة عرب.

وقد حاول الملك الاردني عبد الله والرئيس التونسي زين العابدين بن علي دفع عرفات للحكمة والتعقل، لكنهما أخبرا كلينتون بأن عرفات يخشى القيام بتسويات. لكن المحادثات كانت بصدد التلاشي بينما بدت الكارثة قريبة. وقد كان الطرفان يريدان حقاً الوصول الى اتفاق بحيث ان الرئيس كلينتون طلب متابعة العمل بانتظار عودته من أوكيناوا. لقد قبلوا ذلك لكن الفلسطينيين رفضوا العمل انطلاقاً من العروض التي قدمها، وكانوا يقولون بأنه قد تم ابعادهم.

وعندئذ بدأ الاسرائيليون بالنفور، ويعترف كلينتون بأن ذلك كان جزئياً واضحاً الى درجة كافية مع عرفات حول الطريقة التي ينبغي أن تسير بها المحادثات أثناء غيابي). ويرى كلينتون انه كان قد ترك مادلين أولبرايت وبقية فريقه في وضع غريب، لقد دعت عرفات الى مزرعتها ورافقت باراك لزيارة أحد الميادين المشهورة لمعركة شهدتها الحرب الأهلية الأميركية، لكن هذه (التسالي) وعلى الرغم مما أبداه المعنيان من سرور بها لم تؤد إلى أي نتيجة ملموسة.

وكان شلومو بن عامي وامنون شاحاك، الجنرال السابق في الجيش الاسرائيلي، ومحمد دحلان ومحمد رشيد قد قاموا بمحادثات طويلة، لكن هؤلاء الأربعة الذين كانوا الأكثر حماساً في الوفدين، ورغم توصلهما الى اتفاق حول كل شيء، لم يستطيعوا اقناع قائديهما أبداً. بعد عودة كلينتون من اليابان استؤنفت المفاوضات وانقضت ليلة كاملة في نقاشات حول مسألة الأمن. ولكن في اليوم التالي انقطعت تلك المفاوضات تماماً عندما صرح عرفات انه دون (السيادة) والرقابة على (جبل المعبد) فإن القدس الشرقية لا تهمه.

وفي محاولة أخيرة اقترح كلينتون على عرفات ان يطلب من باراك سيادة كاملة على الضواحي الخارجية للقدس الشرقية وسيادة محدودة على الاحياء الداخلية و(الوصاية على الحرم الشريف). ومرة أخرى رفض عرفات العرض ايضاً فأعلن كلينتون عن نهاية المفاوضات. وقد جاء في الوصف الحرفي للمشاعر آنذاك كما جاء في نص كلينتون: (كان الحزن والاحساس بالحرمان يسيطران على الجميع، لاسيما وانه كان لدى المعسكرين مشروعات متشابهة لإدارة القدس، ولكن كان كل منهما يطلب السيادة عليها).

اعتراف بالفشل

قال كلينتون في الخطاب العلني الرسمي ان الطرفين لم يستطيعا التوصل الى اتفاق حالياً بسبب الابعاد التاريخية والدينية والسياسية للنزاع. ولم ينس أن يؤكد بأن عرفات قد أكد رغبته في السلام، ولكن باراك برهن على (شجاعة كبيرة ورؤية ثاقبة وذكاء كامل حول الأهمية التاريخية لهذه اللحظة). كما أشار إلى الاحترام المتبادل لدى الوفدين وإظهار كل منهما تفهماً للآخر بشكل لم يشهده كلينتون، كما يؤكد خلال السنوات الثماني التي أمضاها في البيت الابيض. ومن خلال نقاش المسائل الأكثر حساسية أدرك الأميركيون مطالب كل طرف وبدا انه ليس من المستحيل الوصول الى اتفاق قبل نهاية تلك السنة ـ عام ٢٠٠٠.

كان عرفات يريد متابعة المفاوضات وأعلن عدة مرات أنه لم تسنح له الفرصة للتفاوض مع قائد إسرائيلي ومع وسيط أميركي لديهما هذا القدر من الرغبة للوصول الى السلام. مثل هذا الوضع جعل من الصعب على كلينتون فهم (جمود) عرفات. الأمر الذي يفسره بأنه ربما يعود الى عدم (هضم) فريقه للتسويات الرئيسية المطروحة أو ربما انهم كانوا يريدون رؤية الى أي مدى سيذهب الاسرائيليون قبل أن يلعبوا ورقتهم الأخيرة.

وبكل الحالات كانوا، أي الفلسطينيون قد زادوا من هشاشة موقع باراك في بلاده. ولذلك قال كلينتون في المؤتمر الصحافي عند نهاية المفاوضات وفي محاولة لطمأنة (الشعب الاسرائيلي) ان باراك لم يقم بأي شيء يمكن أن يعرض أمنهم للخطر، وانه يستحق عن جدارة اعجابهم. ولم يكن قد بقي لكلينتون ستة أشهر في البيت الأبيض.

وفي ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٠ وبعد أسابيع من الجهود التي بذلها الأميركيون، قام باراك بدعوة عرفات لتناول طعام الغداء عنده. وقبل نهاية اللقاء قام كلينتون بالاتصال هاتفياً وتحدث مع الرجلين اللذين ارسلا في اليوم التالي مفاوضين إلى واشنطن لاستئناف المحادثات انطلاقاً من النقطة التي وصلت اليها في كامب ديفيد. وفي ٢٨ من الشهر نفسه دخل شارون إلى حرم المسجد الاقصى، (فناء مساجد) في تعبير كلينتون، الذي اشار بانها كانت المرة الاولى التي يخاطر فيها سياسي مهم بفعل ذلك منذ الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧. وكان موشي دايان قد وعد آنذاك بانه سيتم احترام الاماكن المقدسة.

وقد قال عرفات انه كان قد طلب من باراك التدخل لمنع شارون من القيام بتلك الحركة التي تعني التأكيد على السيادة الاسرائيلية على الموقع وتعزز مكانة شارون في معركته مع نتانياهو للسيطرة على حزب الليكود. وقد قال باراك لكلينتون بانه لم يستطع منع شارون من القيام بذلك العمل. وقد طلب كلينتون وفريقه من عرفات منع اي عنف وحيث ان ذلك يشكل فرصة جيدة للفلسطينيين كي لا يخضعوا للاستفزاز.

اما بالنسبة لكلينتون نفسه فقد حدد رأيه بالجملة التالية: (بالنسبة لي، اعتقد انه كان ينبغي استقبال شارون بالزهور من قبل الاطفال الفلسطينيين ويدعونه للعودة متى رغب ذلك عندما سيصبح حرم المساجد تحت السيطرة الفلسطينية). لقد قامت المظاهرات الفلسطينية في اليوم التالي وواجهها الاسرائيليون باطلاق النار. وقبل عشرة ايام من نهاية رئاسة كلينتون استقبل كلينتون عرفات في المكتب البيضاوي بالبيت الابيض، وقال له: (لم يبق له سوى عشرة ايام من اجل توقيع اتفاق).

وعلى حدة امسكه بذراعه وحدق به قائلاً: (لم يزل لدي فرصة لاقناع كوريا الشمالية بالتوقف عن انتاج الصواريخ طويلة المدى، لكن ينبغي علي ان اسافر إلى هناك لتوقيع الاتفاق. وبما انه سينبغي التوقف في كوريا الجنوبية والصين واليابان، فإن هذه الرحلة ستستغرق اسبوعاً على الاقل). كان كلينتون يدرك كما يؤكد انه كان ينبغي توقيع اتفاق لاعادة السلام إلى الشرق الاوسط قبل نهاية رئاسته وقد قال لعرفات انه قد بذل كل ما في استطاعته من اجل ان تكون للفلسطينيين دولة في الضفة الغربية وغزة من دون تعريض امن اسرائيل للخطر.

فإذا كان عرفات لم يكن يريد السلام، كان عليه ان يقول ذلك لكلينتون كي يذهب إلى كوريا الشمالية لوضع نهاية لتهديد آخر. وكانت اجابة عرفات كما عبر عنها كلينتون: (لقد ناشدني البقاء قائلاً بانه ينبغي علينا توقيع هذا الاتفاق، واذا لم يتم ذلك قبل مغادرتي لمنصبي فإنه قد تمضي خمس سنوات على الاقل قبل ان نكون قريبين من النجاح).

- اليوم الحاسم

كان يوم ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٠ حاسماً بالنسبة لعملية السلام في الشرق الاوسط فبعد اربعة ايام سابقة من المفاوضات بين الطرفين الفلسطيني والاسرائيلي دون نتيجة ادرك كلينتون وفريقه بانه اذا لم يتم تقليص النقاشات واعطاء الاولوية للتسويات الاكثر اهمية فإنه لن يكون ممكناً التوصل إلى اتفاق.

لذلك دعا كلينتون الفلسطينيين والاسرائيليين إلى البيت الابيض ووضع لهم الخطوط الاساسية التي يراها ضرورية لانجاز العملية.. والتي كان قد تم وضعها اثر النقاشات الخاصة منذ كامب ديفيد.. فإما أن يقبلوها خلال اربعة ايام وعندها يمكن الذهاب ابعد.. او ان كل شيء قد انتهى.

لقد قرأ كلينتون تصوره بهدوء كي يتمكن الوفدان من الكتابة، وقد طلب الرئيس الاميركي في (خطته) بالنسبة للضفة الغربية ان تتم اعادة ٩٤% إلى ٩٦% للفلسطينيين وبالنسبة للامن قال كلينتون بانسحاب القوات الاسرائيلية خلال فترة ثلاث سنوات واستبدالها تدريجياً بقوة دولية مع امكانية الابقاء على وجود اسرائيلي ضئيل في وادي الاردن لمدة ثلاث سنوات اضافية تحت رقابة القوة الدولية. ويمكن للاسرائيليين الاحتفاظ بنظام الانذار الاول في الضفة الغربية.

وفي احتمال وجود (تهديد) قريب ومؤكد لامن اسرائيل يمكن نشر قواتها في الضفة الغربية. اما الدولة الفلسطينية الجديدة فتكون (منزوعة السلاح) ولكنها تمتلك قوات امن كبيرة ولها السيادة على مجالها الجوي مع ترتيبات تسمح بتحركات وعمليات الجيش الاسرائيلي، وتكون هناك قوة دولية للسهر على حدود هذه الدولة.

وبالنسبة للقدس نصح كلينتون بان تكون الاحياء العربية في فلسطين واليهودية في اسرائيل وان تكون السيادة على حرم المساجد للفلسطينيين بينما تكون لاسرائيل السيادة على الجدار الغربي وعلى المنطقة (المقدسة) فيه. وبحيث لا يمكن القيام باية عمليات حفر تحت الجدار او تحت الحرم دون اتفاق الطرفين عليها.

وقرر كلينتون بالنسبة للاجئين ان تكون الدولة الفلسطينية هي وطن لاجئي عام ١٩٤٨ ومن تلاهم بسبب الحروب اللاحقة ويمكن لاسرائيل ان تقبل بعضهم في حدود قوانينها وقراراتها السيادية مع اعطاء الاولوية للاجئين لبنان. ونصح كلينتون

بضرورة ان تكون هناك مساعدة دولية للتعويض على اللاجئين ومساعدتهم على الاقامة في الدولة الفلسطينية. وينبغي ان يعترف الطرفان بأن في هذا الحل يستجيب لقرار مجلس الامن رقم ١٩٤.

واخيراً ينبغي ان يكون الاتفاق بمثابة نهاية للنزاع ولكل اشكال العنف.. وأوصى كلينتون بأنه يمكن لمجلس الامن ان يتبني قراراً جديداً ينص فيه على ان هذا الاتفاق، مع اطلاق سراح السجناء الفلسطينيين يستجيب لمتطلبات القرارين ٢٤٢ و٣٣٨.

وحدد كلينتون القول: ان خطته غير قابلة للتفاوض وانه قدم افضل ما لديه وعلى الطرفين التفاوض للوصول الى اتفاق نهائي. وبتاريخ ٢٧ ديسمبر اعلنت الحكومة الاسرائيلية موافقتها مع بعض التحفظات التي امكن احتواءها عبر التفاوض. واعتبر كلينتون ذلك قراراً تاريخياً قبلت فيه حكومة اسرائيلية السلام وقيام دولة فلسطينية على ٩٧% من الضفة الغربية وكامل قطاع غزة. وكانت الكرة في ملعب عرفات، يقول كلينتون الذي يؤكد بأنه اتصل بأغلبية القادة العرب لطلب مساعدتهم. ولكن ذلك كان كله دون نتيجة.. الامر الذي يقول عنه كلينتون حرفياً لا اصدق دائماً ان عرفات كان قادراً على اقتراف خطئ جسيم كهذا.

ذهب كلينتون واسرته لقضاء رأس السنة الجديدة في كامب ديفيد، ولم يكن عرفات قد اعطاه اي جواب. فدعاه للمجيء الى البيت الابيض في اليوم الثاني. التقى عرفات قبل مقابلته بالأمير بندر بن سلطان وبالسفير المصري في فندقه حيث دفعاه كي يقول (نعم) كما نقل احد مساعديه الشباب وعندما التقى عرفات بكلينتون طرح عليه كل اشكال الاسئلة حول اقتراحه للاتفاق. وقد قبل ان تأخذ اسرائيل جدار (المبكى) لان له دلالة دينية، لكنه اكد بأن العشرين متراً الباقية ينبغي ان تعود للفلسطينيين. فاجابه الرئيس كلينتون بأنه مخطيء وبأنه ينبغي ان تأخذ اسرائيل الجدار كله من اجل منع ان يتمكن احد من المرور بالنفق الذي تحت الجدار بقصد العبث بخرائب المعابد. كذلك طالب عرفات باعطائه (بعض المنازل) في الحي الارمني حيث كانت توجد الكنائس المسيحية. كذلك فعل عرفات كل ما في وسعه من اجل عدم التخلي عن حق العودة مع انه كان يعرف تماماً بأن ذلك مستحيل ولكنه كان يخاف ان يعاب عليه ذلك.

وقد ذكره كلينتون بأن اسرائيل قد وعدت باستقبال قسم من لاجئي لبنان، ولكنها لن تقبل وجود عدد كبير من الفلسطينيين يمكن ان يهدد السمة اليهودية، كما ان نسبة الولادات لدى الفلسطينيين أكبر مما لدى اليهود، وبالتالي لا يمكن قيام دولتين مستقبلاً فيهما اغلبيتين عربيتين. ثم نظرا للمكانة المركزية لموضوع اللاجئين فإنه سيتم اخضاعه لاستفتاء شعبي، حيث يؤكد كلينتون بأه لا يستطيع دفع الاسرائيليين للموافقة عليه.

بدا عرفات مضطرباً احياناً وان الاحداث قد تجاوزته، وبأنه قد تعب بعد سنوات الحركة المستمرة مسافراً أو متخفياً. ويعرب كلينتون عن اعتقاده بأن أغلبية الشباب في فريق عرفات كانوا يريدون السلام وكان أبو مازن وأبو علاء يريدان ايضاً ولكن لا يريدان معارضة عرفات.

خرج عرفات من عند كلينتون ولم يكن هذا الاخير يعرف القرار الذي سوف يتخذه بينما كان موقفه يوحي بأنه لن يوقع لكن لم يكن كلينتون يتصور بأنه يمكن للانسان ان يكون (مجنوناً) الى درجة ترك مثل هذه الفرصة تفوت. كان باراك يريد ان يذهب كلينتون الى الشرق الاوسط لكنه رفض ذلك قبل ان يعطي عرفات موافقته لاسرائيل على خطة كلينتون.

وفي النهاية التقى عرفات بيريز الذي كان قد سبق والتقى بصائب عريقات. لكن كان الطريق مسدوداً دائماً. ثم فشلت محادثات طابا في مصر، وقبل ان يترك كلينتون الرئاسة وخلال الحوادث الاخيرة، شكر عرفات كلينتون لما بذله من جهود، وقال له انه (رجل عظيم)، فاجابه كلينتون (سيادة الرئيس انا لست رجلاً عظيماً لقد فشلت، وأنا مدين لك بذلك).

حكاية مونيكا

في ١٧ كانون الثاني ١٩٩٨ تمت دعوة بيل كلينتون للادلاء بشهادته في قضية (باولا جونز)، وبعد ان أدى اليمين امام المحكمة شرع القضاة بتحديد مفهوم العلاقات الجنسية واعتبروه انه عامة (أي اتصال أكثر حميمية من قبلة. واذا كان يرمي الى ارضاء اثارة جنسية أو يوقظها).

ثم يكتب كلينتون عن تلك الجلسة: (لقد استمرت الجلسة عدة ساعات، تم تكريس ما بين عشر الى خمس عشرة دقيقة فقط لباولا جونز. وما بقي يمحص موضوعات مختلفة (...) وخاصة اسئلة عديدة حول مونيكا لوينسكي. وكان المحامون يريدون ان يعرفوا اذا كنت أعرفها جيدا واذا كنا قد تبادلنا الهدايا وتحادثنا في الهاتف، وأخيرا اذا كانت لي علاقات جنسية معها. ولقد أخبرتهم بمضمون محادثاتنا، وبأنني قدمت لها بعض الهدايا، ثم أجبت بالنفي فيما يخص العلاقات الجنسية).

لم يكن بيل كلينتون يعلم آنذاك ان المحقق ستار كانت لديه البراهين التي تثبت انه كانت له (علاقات جنسية) مع المتدربة السابقة في البيت الابيض بالمعنى الذي كان قد تم تحديده لمفهوم العلاقات الجنسية خلال قضية باولا جونز. وكانت تلك البراهين تتمثل بعدد من أشرطة التسجيل التي تحتوي محادثات احدى صديقات مونيكا، المدعوة ليندا تريب بتسجيلها خلسة والتي تتضمن اعترافاتها بوجود تلك العلاقات.

لم يكن كلينتون يعرف وجود تلك الاشرطة، لكنه كان يعرف كما يكتب اليوم، بأنه كذب تحت القسم. فمونيكا لوينسكي عملت في البداية كمتدربة في البيت الابيض طيلة صيف عام ١٩٩٥، ثم كموظفة ما بين كانون الأول من تلك السنة وحتى مطلع نيسان، حيث تم تحويلها آنذاك الى وزارة الدفاع، وكان اسم مونيكا لوينسكي قد ظهر في قائمة الشهود المحتملين في مطلع كانون الأول ١٩٩٥، واصبحت (شاهدة) بعد اسبوعين فقط.

ويؤكد كلينتون قوله: (لم أتحدث مع محاميي آنذاك عن علاقتي معها، وإنما أشرت الى حيرتي وترددي حيال ذلك الفريق العجيب للعلاقات الجنسية بمناسبة قضية باولا جونز. ولم يكونوا هم أقل حيرة).

لقد طلب احد محاميه من محاميي الادعاء ان يطرحوا أسئلة دقيقة ولا لبس فيها عن علاقته بالنساء، وعندما سأل كلينتون المحامي نفسه الذي كان يطرح أسئلة عليه عما اذا كان لديه سؤال آخر أكثر تحديدا، أجاب بالنفي ثم أضاف: (أعتقد انه سيتم توضيح هذه النقطة تماما قريبا جدا، ولن تتأخر كثيرا في فهم ذلك).

ويشير كلينتون الى انه كان مسموحا للقليل من الناس بأن يأتوا للعمل في البيت الابيض في حوالي نهاية عام ١٩٩٥، أما أولئك الذين كانوا يأتون للعمل فإنهم كانوا يبقون حتى ساعة متأخرة. في تلك الفترة كانت لي للمرة الاولى علاقات ـ ليست في مكانها ـ مع مونيكا لوينسكي. ثم تكررت هذه العلاقات ما بين شهر تشرين الثاني من السنة نفسها وحتى نيسان، أي حتى غادرت مونيكا البيت الابيض الى البنتاغون. لم أرها بعد ذلك خلال الاشهر العشرة التالية، ولكن كان يحدث ان اتصل بها هاتفيا من وقت لآخر. يحدد كلينتون القول.

وفي شباط ١٩٩٧ كانت مونيكا احد المدعوين الى حضور التسجيل العام للخطاب الاسبوعي لكلينتون في الاذاعة، وبعد انتهاء البث التقى بها على انفراد لمدة ربع ساعة يقول: (كان موقفي يوحي لي بالقرف، وعندما رأيتها في الربيع التالي قلت لها ان علاقتنا كانت مسيئة بالنسبة لي ولأسرتي ولها هي نفسها، وانني لم أكن أستطيع الاستمرار. ثم أضفت انها ذكية، ومهمة، وتستحق حياة جيدة، وانني أستطيع ان أقدم لها مساعدة صداقية، إذا وافقت على ذلك).

كانت مونيكا تتردد على البيت الابيض بانتظام، وكان كلينتون يلقاها بترحيب وتكريم، وقد طلبت منه في تشرين الأول ان

يساعدها لايجاد عمل في نيويورك، ففعل ذلك. ثم اختارت احد عرضين للعمل، وجاءت حوالي نهاية أيلول الى البيت الابيض لتودعه، وفي تلك الاثناء تلقت مذكرة الدعوة للشهادة في قضية باولا جونز، لكنها لم تشأ ان تؤدي تلك الشهادة).

ويشير كلينتون الى انه قال لها عندها حرفيا: (لقد قلت لها ان عدة نساء تجنبن الاستجواب عندما صرحن وهن تحت القسم، وكتابة، بأنهن لم يتعرضن لأي تحرش جنسي من قبل). ثم يردف القول: (ما فعلته مع مونيكا لوينسكي كان غبيا ولا أخلاقيا. وقد انتابني بسببه احساس عميق بالعار، وقد أردت دائما ان أخفي ذلك.

وقد حاولت في شهادتي أن أقوم بحمايتنا، أسرتي وأنا، ضد حماقتي وضد أنانيتي. لقد اعتقدت ان ذلك التعريف الزئبقي للعلاقات الجنسية يسمح لي بأن أتصرف كما تصرفت. وفي الوقت نفسه وبسبب انزعاجي من ذلك التعريف طلبت من المحامي الذي كان يلقي علي الأسئلة أن يلقي أسئلة أكثر تحديدا. ولم أتأخر في فهمي للأسباب التي دعته الى ألا يفعل ذلك). وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٩٨ أي بعد اربعة ايام فقط من شهادة كلينتون في قضية باولا جونز والتي تركزت أسئلة المحققين فيها على علاقته بمونيكا لوينسكي، وليس بصاحبة القضية - الرئيسية -، قامت صحيفة (واشنطن بوست) بنشر مقال أعلنت فيه انه كانت لكلينتون علاقة مع مونيكا لوينسكي وانه متهم بتشجيعها للكذب تحت القسم، ثم أضافت الصحيفة ان المحقق ستار مكلف بالتحقق من صحة ذلك. لقد حاول ستار ان يثير فضيحة من اجل دفعي الى الاستقالة.

لقد كسب الجولة الاولى ولكن بدا لي ان الزمن كان يلعب لصالحي، اذا استطعت مواجهة الفضيحة خلال اسبوع او اسبوعين، فعندها سينقشع الدخان وسيبدأ الجمهور والصحافة بتحليل دوافع ستار وطرقه، وسوف يرى كل انسان الصورة بتناقضاتها أكثر. كنت أعرف بأنني قد ارتكبت خطأ جسيماً ولم أكن أريد ان أدعه يتعاظم عبر ترك ستار يدلني على باب الخروج.

انفجار القضية

تابع كلينتون عمله متبنيا استراتيجية دفاعية كمنت في متابعة نفي الوقائع جملة وتفصيلا، كما كان قد كرر لهيلاري ولابنته تشيلسي، ولكن ايضا لمساعديه ولادارته ولاصدقائه وللكونغرس ولبعض الصحافيين وللشعب الاميركي. يحدد كلينتون القول امام هذا الموقف: (باستثناء انحرافي عن الطريق، كان ذلك هو اكثر ما يثير أسفي لأنني لم أقل الحقيقة كلها لهؤلاء جميعاً).

ومنذ عام ١٩٩١ نعتوني بالكذاب في ألوف المناسبات في الوقت الذي كنت شريفا دائما في حياتي العامة وفي الشئون المالية، كما أثبتت مختلف عمليات التحقيق. وها أنا أكذب على الجميع في مسألة انحراف شخصي (...) كنت أتمنى أن أحافظ على زوجتي وعلى ابنتي. ولم أكن أريد أن أترك (ستار) يلطخ حياتي الشخصية، ولم أكن أريد أن يعرف الشعب الأميركي انني قد خنث ثقته. كان ذلك بمثابة كابوس حقيقي).

تعرض بيل كلينتون للأسئلة حول الموضوع وعن علاقته بمونيكا لوينسكي ويحثها على الكذب وهي قد أقسمت ان تقول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، وكانت اجابته المستمرة، رغم انفجار القضية، بأنه (لم يطلب من احد أن يكذب، وكانت هيلاري تؤكد في تصريحاتها بأنها لا تصدق شيئا من الاتهامات الموجهة لزوجها وبأنهما منذ حملة ١٩٩٢ - قضية واين ووتر وتداخلاتها وما رافقها من اتهامات لكلينتون بعلاقات نسائية - ويواجهان (مؤامرة كبيرة يقودها اليمين). وهذا ما يعلق عليه بيل كلينتون بالقول انه (عند سماع هيلاري وهي تدافع عني كان خجلي يتعاظم).

ولكن لم يكن ممكنا ان يمتد حبل الكذب الى ما لا نهاية. ففي صباح السبت الخامس عشر من شهر آب ١٩٩٨ أيقظ بيل زوجته هيلاري كي يعترف لها بكل شيء، وحيث نقرأ: (في صباح السبت ١٥ آب وبعد ان أمضيت ليلة سيئة ومهموما بسبب اقتراب شهادتي أمام لجنة المحلفين الكبرى، قمت بايقاظ هيلاري من نومها كي أقول لها حقيقة ما جرى بيني وبين مونيكا لوينسكي. لقد نظرت لي وكأنني كنت قد وجهت لها للتو ضربة في جوفها.

كان غضبها الشديد بسبب كذبي عليها يعادل تقريباً غضبها بسبب الوقائع نفسها. قلت لها انني متأسف وانني لم أجرؤ على الحديث لأي شخص كان. وقلت لها انني أحبها وانني لم أكن أريد أن أسبب الألم لها ولتشيلسي، وانني كنت خجولا من سلوكي وانني احتفظت بالسر كي أتجنب جرح القريبين مني واضعاف موقفي. وبعد جميع الأكاذيب والهجومات التي تعرضت لها منذ بداية فترتي الرئاسية كنت أريد تجنب ان تجرفني الموجة التي أعقبت شهادتي في كانون الثاني ـ قضية باولا جونز. ولم أفهم أبداً بشكل جيد لماذا اقترن بذلك الخطأ، تلك الحماقة؟ ولن أفهم إلا فيما بعد وتدريجياً وخلال الأشهر التي اشتغلنا فيها على علاقتنا).

في غرفة الخرائط

بعد يومين استعد بيل كلينتون للمثول أمام لجنة المحلفين الكبرى، حيث استمرت المواجهة لمدة أربع ساعات كاملة في غرفة الخرائط بالبيت الابيض حيث كان ستار قد قبل عدم استقدام الرئيس الى قاعة المحكمة. لكنه أصر بالمقابل على تصوير شهادته على شريط فيديو بحجة ان أحد اعضاء لجنة المحلفين الاربعة والعشرين لن يستطيع الحضور.

وقد استمعت اللجنة الى الاستجواب بواسطة شبكة تلفزيونية مغلقة في قصر العدل. ولا يتردد كلينتون في القول ان ستار ومحققيه قد فعلوا كل ما في وسعهم من اجل تحويل شريط الفيديو المسجل الى فيلم جنسي خليع. وقد طرحوا علي أسئلة بقصد اذلالي واثارة نفوذ الكونغرس والشعب الاميركي الى درجة تدفعهم لطلب عزلي، مما يسمح لستار فيما بعد بوضعي في قفص الاتهام.

وقد اعترف بيل كلينتون بأنه (في بعض المناسبات عام ١٩٩٦ ومرة واحدة عام ١٩٩٧) قد (تصرف بشكل سيء عبر قيامه باتصالات حميمة ما كان ينبغي لها ان تتم مع مونيكا لوينسكي)، كما اعترف بأن سلوكه المدان اخلاقياً لم يؤد الى علاقات جنسية بالمعنى الذي فهمه عندما تم تحديده من قبل القضاء أثناء قضية باولا جونز. وعندما انقضت الساعات الاربع التي كان متفقاً عليها، يشير كلينتون الى ان محامي الادعاء وجهوا له بعض الاسئلة ست أو سبع مرات.

وانهم قاموا بكل ما في وسعهم من اجل الحصول منه على اعترافات مذلة وتستدعي الادانة الصريحة. هذا ما يمكن ان يتلخص فيه ذلك التحقيق الذي بلغت كلفته حتى ذلك اليوم ٤٠ مليون دولار من اجل القيام بتحليل لغوي لتعبير ـ العلاقات الجنسية. في اليوم التالي لتلك المواجهة بساعاتها الأربع المضنية توجه بيل وهيلاري وابنتهما شيلسي لامضاء عطلتهم السنوية حيث كانوا قد تعودوا. ويقول كلينتون صراحة بأنه كان يفضل في تلك السنة ان يعمل اربع وعشرين ساعة من اصل اربع وعشرين وهو الذي كان طالما يشتاق ليكون في اطار أسرته.

وعندما كان الثلاثة يجتازون الحديقة الجنوبية للبيت الابيض من اجل ان يستقلوا طائرة الهليوكبتر التقط المصورون بعض الصور التي (كانت تشهد على مدى الألم الذي كنت سببا له) يقول كلينتون ويضيف: (عندما لم تكن هناك عدسات تصوير ظاهرة في المكان، لم تكن ابنتي وزوجتي توجها لي الحديث عملياً).

كادت فضيحة مونيكا لوينسكي ان تؤدي الى عزل الرئيس الاميركي بيل كلينتون، وهذا لم يحصل، ولكنها تركت بالتأكيد آثارها على ما تبقى من رئاسته، وربما من حياته. ويعترف كلينتون بأنه طلب من ثلاثة من رجال الكنيسة ان يساعدوه بنصائحهم وان يأتوا مرة واحدة على الأقل كل شهر الى البيت الابيض من اجل تنمية حسه الروحي. كما يعترف بأنه ذهب مع هيلاري لاستشارة مستشار بالحياة الزوجية، وذلك مرة في الاسبوع خلال عام كامل تقريبا، وحيث استطاع للمرة الاولى أن يتحدث بشكل صريح ومفتوح على مشاعره وتجاربه وافكاره وعن الحياة والحب وطبيعة العلاقات بين البشر. ولكن ماذا فهم أيضاً؟

(لقد آلمني اكتشافي انني بسبب طفولتي والحياة التي عشتها فيما بعد واجهت صعوبات كبيرة في ان أفعل بعض الامور التي تبدو اكثر طبيعية من غيرها)، و(فهمت ايضا انني عندما أكون منهكاً أو في حالة غضب، وعندما أحس انني وحيد أو معزول كنت أتصرف غالبا بشكل أناني ومدمر ذاتيا آسف عليه فيما بعد). ويضيف: (ان الوضع التنازعي الذي وجدت نفسي فيه كان

النتيجة الاخيرة لميلي المستمر نحو ان أعيش سراً أكثر من حياة مما كان يسمح له بصد غضبي وحزني ومتابعة حياتي المشهودة ـ العلنية ـ التي أحبها وأعيشها بشكل جيد).

وأيضاً: (ما فعلته لا يمكن الاعتذار عنه، ولكن من خلال محاولة فهم لماذا فعلته حصلت على فرصة وضع حد نهائي لازدواجية الحياة ـ عيش حياة علنية وحياة سرية). وعن علاقته بهيلاري، كيف أصبحت؟

يقول: (لقد أحببت دائماً زوجتي، ولكن ليس بشكل جيد دائماً. وأعترف لها دائما بالشجاعة للقيام بالعمل معي. لقد كنا أفضل صديقين في العالم وأتمنى أن نستطيع انقاذ زواجنا). وبانتظار أيام أفضل أمضى بيل كلينتون الكثير من الليالي وهو ينام على أريكة في الحجرة الصغيرة الملاصقة لغرفة نومهما.. وقد سمح له ذلك بأن يقرأ كثيراً لكنه كان يأمل بأن (لا يطول إلى ما لا نهاية).

كان عليه أن يتابع نشاطاته الرئاسية (كي يحقق الانتصار فعليا في المواجهة مع اليمين المتطرف) حسب تعبيره. وكانت تلك استراتيجية ناجعة. وقد سئل كلينتون غالبا كيف استطاع أن يتجاوز ذلك الامتحان الصعب دون ان يفقد عقله) أو على الاقل قدرته على العمل. وأجاب دائما بأن شجاعته قد تغذت من دعم رجال يحظون باعجابه من بينهم نلسون مانديلا .

وتوني بلير والملك حسين وفيوسلاف هافل والامير عبدالله وجاك شيراك وغيرهم. أما قدرته على (البقاء) و(العمل) فانه تجد معينها دائما لدى أسرته التي استمرت بحبه والدفاع عنه. ويختصر بيل كلينتون في جملة جميلة حصيلة الايام الصعبة بالقول: (لقد انتهى بي الامر الى ان اعترف تقريبا بجميل الوشاة اذ من كان غيرهم يمكنه ان يجعلني أستعيد اعجاب هيلاري؟ بل وحتى حصلت على السماح بترك تلك الاريكة).

وفي ١٩ كانون الأول ٢٠٠٠ أي بعد اعلان فوز جورج دبليو بوش وقبل استلامه مهام منصبه الرئاسي رسمياً تقابل الرجلان في البيت الابيض وتحدثا في مواضيع شتى وخاصة في مسألة الامن القومي.. فقال له كلينتون بالاعتماد على تجربة السنوات الثماني التي أمضاها في البيت الابيض: (ان المشاكل الرئيسية بالنسبة للأمن قد تكون بالترتيب:

- اسامة بن لادن والقاعدة
- غياب السلام في الشرق الاوسط
- الطريق المسدود بين القوتين النوويتين للهند والباكستان
- الروابط التي توحد بين الباكستانيين وطالبان والقاعدة
- وكوريا الشمالية
- واخيراً العراق.

وعبرت له عن خيبة أملي الاكبر في عدم القبض على ابن لادن، وبأن أمل الوصول الى سلام في الشرق الاوسط لا يزال قائماً وبأننا كنا على وشك توقيع اتفاق مع كوريا الشمالية لوضع حد نهائي لبرنامج صواريخها ولكن قد يكون عليه الذهاب الى هناك لتوقيعه).

ويضيف كلينتون: (لقد استمع لي دون أي تعليق ثم غير الموضوع).

www.smart10.com

تم التنسيق

في

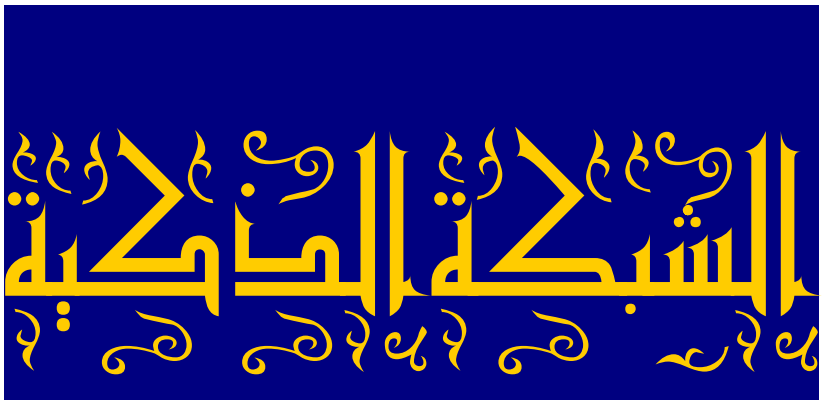

www.smart10.com

مصدر المحتوى

جريدة الإتجاه الآخر